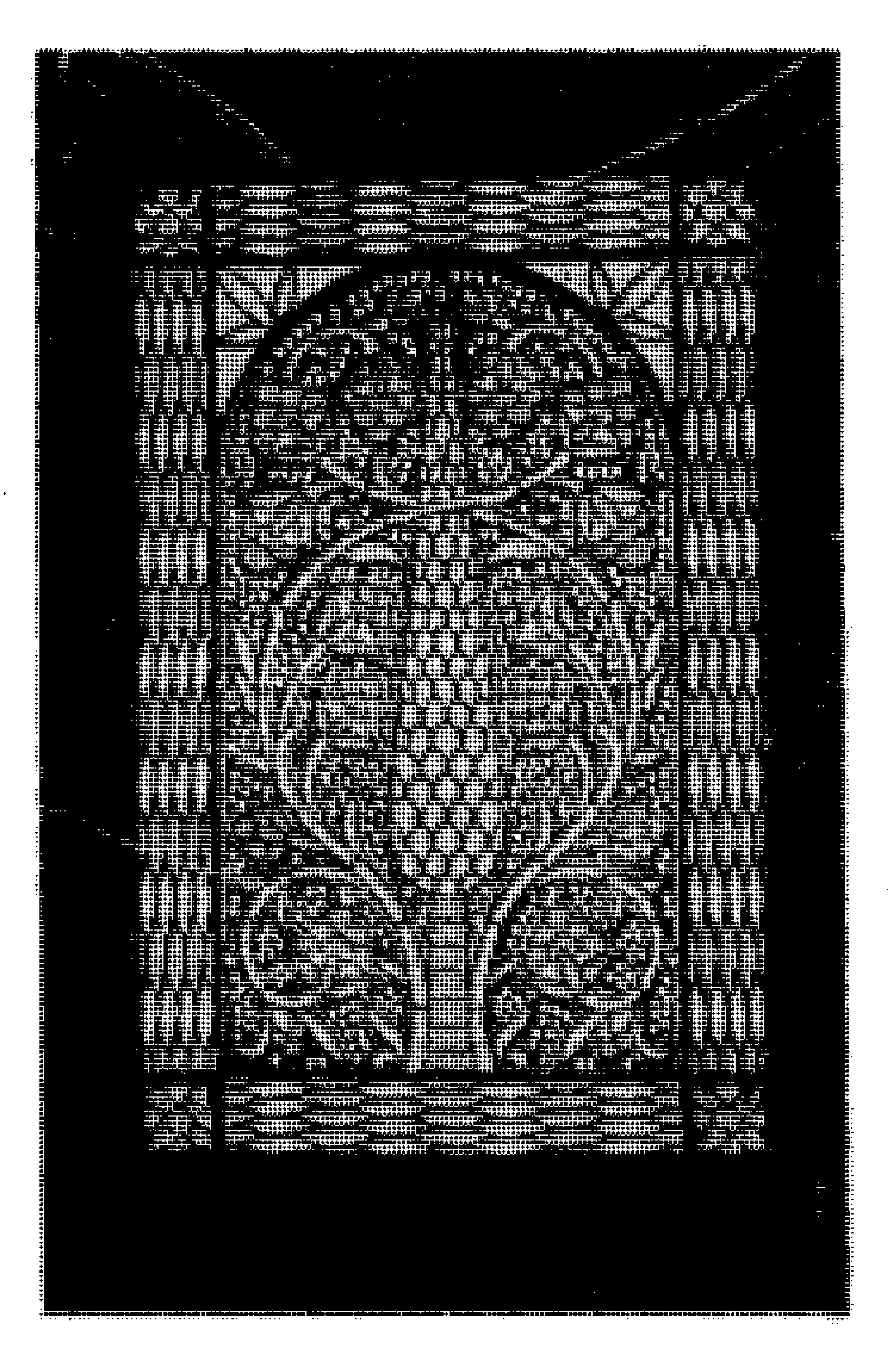
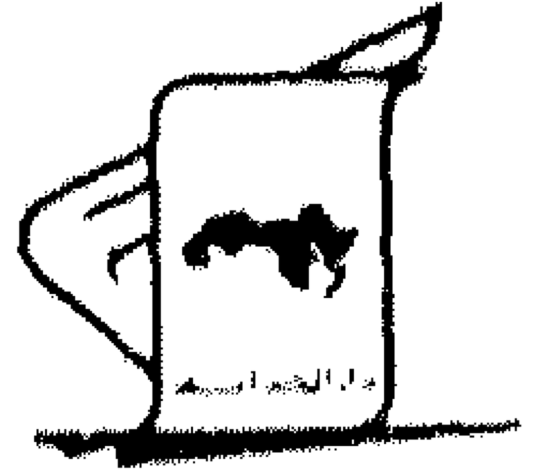
للمستشرق الايطالي
اغناطيوس غويدي

ترجمه وقدم له :
ابراهيم السامرائي

محاضرات
في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام





محاضرات
في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام

للمستشرق الايطالي
اغناطيوس غويدي

ترجمه وقدم له :
ابراهيم السامرائي



دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان. بيروت ص.ب ١٤/٥٦٣٦

طريق المطار ـ شارع مدرسة القتال
بناية حلمي عويدات ـ تلفون
٨٣٣٩٨٩ ـ ص.ب. ١٤/٥٦٣٦

الطبعة الأولى
١٩٨٦

مقدمــة

هـذا كتيّب صغـير يشتمـل عـلى أربـع محـاضـرات كـان الاستاذ المستشرق الايطالي اغناطيوس غويـدي قد ألقـاها بلغـة فرنسية على طلبة الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩، وكأنه كان يرمي أن تكون مادة تزوّد غير المختصـين بفوائـد تتصل بتـاريخ بـلاد العرب.

وهي من غير شك ممـا يحسن بالمختص أن ينـظر فيها ويفيـد منهـا. وإذا كنت قد أقـدمت على تعـريب هذه المحـاضـرات، فإنني أقصد إلى أن يكون لدى الدارس من أبناء العـربية جميـع ما حرّره غير العرب في التاريخ والأدب واللغـة وسائـر المعارف الانسـانية التي تتصـل بالعـرب والمسلمين عـامة. إن الـدارس العربي ليجد في هذه المصنفات فوائد جمّـة، ولا يضير أن يكـون لنفـر من هؤلاء الاعاجم المستعـربـين آراؤهم الخـاصـة التي لا نؤمن بها، ذلك بأن الخير كـل الخير أن نقف عـلى هذه الفـوائد لنفيـد منها، ونـدرك أن لغـير العـرب والمسلمـين آراءً خـاصـة

وطرائق خاصة حين يعرضون لجملة ما يتصل بالمعارف العربية والاسلامية.

ومن المفيد أن أعرض لمسألة يرددها المعنيون بالحضارة الاسلامية وهي أن «المستشرقين» يكيدون للعرب والمسلمين، وهم حاقدون على الاسلام يدفعهم استعمار غربي ظالم. أقول: لقد استقر هذا في أذهان جمهرة الدارسين فصرفهم عن النظر في جملة ما كتب هؤلاء.

أقول: ليس من الحق أن نطلق هذه المزاعم، وأن نمضي في هذه الأقاويل قبل أن نستقري ما كتب هؤلاء «المستشرقون» ونستوفي الاستقراء لنهتدي إلى أن فئة منهم قد خالفت العرب والمسلمين فكتبت ما كتبت مما لم يتفق والعقيدة الاسلامية. وليس غريباً أن تكون هذه المخالفة رأياً خاصاً بدالهم، على أني لا أستبعد أن يكون بينهم من دفعه حقده وتعصبه إلى الطعن والنيل مما يتصل ببعض آراء المسلمين وسلوكهم.

ولكني أعود فأقول: وهل يضير أن يكتب هؤلاء بهذه الروح الحاقدة فننصرف نحن عمّا كتبوا، ونذهب بعيدين عمّا يكون لهذا الذي كتبوه من أثر؟ ما أظن هذا وجيهاً، ذلك أن علينا أن نعرف ما كتبوا ونتدبره ليتهيأ لنا أن نردّ عليهم آراءهم التي أثبتوها في مصنفاتهم. كما ينبغي لنا ألاّ يصرفنا هذا عمّا قدّم جمهرتهم من خير لحضارتنا وتراثنا، ولو كان لي أن أعرض لهذا

لكان عليّ أن أفرد له كتاباً برأسه. لقد كان هؤلاء أوّل من نشر ذخائرنا القديمة في التاريخ والأدب واللغة وسائر المعارف الاسلامية، ثم جئنا نحن بأخرة نقلدهم ونحاكيهم ونسير على هديهم في نشر أمهات المصادر، وحسبك أن تعرف أنهم نشروا تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وصحيح الإمام البخاري وقانون ابن سينا وكتاب سيبويه وأغاني أبي الفرج وعشرات من ذخائرنا النفيسة غير ذلك قبل أن ننهض نحن فننشر شيئاً من هذا، ولم نصل إلى ما وصلوا إليه في الضبط والإتقان. وما زالت «المكتبة الجغرافية» هي المعوّل عليها في البحث والدرس وأن ما نشره العرب من أجزائها ليس بشيء.

لم أرد أن أعرض لهذه المسائل، ولكني آثرت أن أمر عليها مرّاً سريعاً لأقول أن فينا حاجة إلى ما كتب هؤلاء الأعاجم ممن أفاد وخدم العلم وآخرين ممن قصدونا بسوء، وخير لنا أن نعرف ما كتبوه في حضارتنا بوجه عام.

وبعد أليس من المفيد أن نقف على هذه الأشتات القديمة من حضارتنا التي أخلص في التوجّه إليها الاستاذ غويدي؟

د. إبراهيم السامرائي
١٩٨١/٦/١٥

تمهيد

لقد اتصل بي جملة أصدقاء طيبين ورغبوا إليّ رغبة شديدة في أن أنشر محاضراتي الأربع التي توجهت بها إلى القارىء العام، والتي ألقيتها في الجامعة المصرية في القاهرة وذلك سنة ١٩٠٩. وقد رأيت أن استجيب إلى هذه الرغبة الشديدة فأنشر نص تلك المحاضرات على ما كانت عليه عند إلقائها. وإني لأطمع في سماحة القرّاء ـ ولا سيما الفرنسيين منهم ـ فأسألهم بعض العطف على مؤلف ليس له ما يشفع إلا أنه كتب بلغة غير لغته التي جبل عليها.

اغناطيوس غويدي

روما، نوفمبر ١٩١٩

إغناطيوس غويدي (١٨٤٤ ـ ١٩٣٥ م).

مستشرق إيطالي، عالم بالعربية والحبشية، والسريانية، من أعضاء المجمع العلمي العربي كان شيخ المستشرقين في عصره. ولد في رومة، وعهد إليه بتعليم العربية في جامعتها سنة ١٨٨٥ م. ثم كان استاذاً في الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ م، وكان يلقي محاضرانه باللغة العربية في اللغة والأدب والتاريخ والجغرافية عند العرب، وعلاقة هذه المعارف بأوروبا ولا سيما إيطاليا.

ومن مصنفاته:

١ ـ محاضرات ألقاها في الجامعات المصرية (ط).

٢ ـ وجداول كتاب الاغاني (ط)

٣ ـ رسالة في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة.

٤ ـ بحث عن «الاستدراك على سيبويه» للزبيدي.

٥ ـ بحث عن «الامثال» لابن القوطية[١].

وله معجم كبير للغة الأمحرية، وله شرح لـ«بانت سعاد» و «وصف مدينة انطاكية»[٢].

---

(١) الأعلام للزركلي ٤/٣٣٦.

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعرّبه ص ص ٧٢٤ ـ ٧٢٥ وتاريخ الادب لجرجي زيدان ٤/١٨٠

المحاضرة الأولى

في

شبه جزيرة العرب ما قبل الاسلام

الممالك في شمالي شبه جزيرة العرب وفي وسطها قبل ظهور الاسلام*

مملكة تدمر

حينما نتحدث عن العرب، تتجّه أفكارنا بصورة تلقائية نحو

---

* كنت قد ترجمت هذه «المحاضرات» وهيأتها للنشر وطلبت الى الشيخ عبد العزيز الرفاعي في المملكة العربية السعودية أن ينشره في حملة ما ينشر من الكتب فوافق، ثم طلب إلي أن يزوّد النص بشيء من التعليقات المفيدة فأقررته على اقتراحه. وكأنه طلب إلى استاذ فاضل هو الدكتور علي شواخ إسحاق أن يقوم بهذا العمل فعلق تعليقات مفيدة مناسبة. ولم يكتب لهذا الكتيب أن ينشر في السعودية دلك أن الشيخ الرفاعي قد أوقف نشر الكتب كما أفادني، فطلبت إليه أن يردّ غرسة هذا الكتيب الذي بقي ما يقرب من ثلاث سنوات ينتظر الطبع. ولما وصل إليّ وحدته محتاجاً الى تحرير جديد بسبب ما عرض له، فحررته ثانية وأثبت أكثر تعليقات المعلّق الفاضل الذي عوّل فيها كثيراً على «كتاب المفصل» للدكتور جواد علي وعلى غيره من المصادر، وقد أضفت إلى تعليقاته مثلها أو أكثر منها ابتغاء أن يظهر هذا الكتيب بهيئة ترضي الدارسين. و«المحاضرات» في الأصل خلو من أي تعليق.

مؤسس الدين الإسلامي[1]، وكذلك نحو الفتوحات الكبرى في الأحقاب الأولى للخلافة الإسلامية، أو قل نحو الخلافة نفسها، التي هي في نظر المشارقة كما في نظر الغربيين كأنها حلم إشراقاً وعظمةً. ولكننا ننسى بيسر، شبه الجزيرة ما قبل الإسلام، وذلك خطأ كبير منا. وقد نضع جانباً مظاهر الحضارة في الجنوب فلا نتكلم عليها، تلك التي نقوشها وكتاباتها ترقى في الأقل إلى القرن الثالث قبل التاريخ الميلادي، ثم تلك الدويلات التي قامت على حافة الصحراء في الشمال أو في الشمال الشرقي من بلاد العرب، ثم أيضاً تلك التي قامت في الوسط من شبه الجزيرة حيث تطورت وتأكدت مميزات الجنس العربي. وليس هذا شيئاً قليلاً في التاريخ العظيم للإسلام.

وفي التاريخ أمثلة منها: سبتميوس أودناتوس[2] قاهر سابور

---

(١) قول الاستاذ غويدي «مؤسس الدين الاسلامي» قد يقشعر منه المسلمون، ذلك أن النبي محمداً - ﷺ - نبي أوحيت له الرسالة الاسلامية.

(٢) هو أذينة زوج الزباء، كان شجاعاً، أراد الانتقام لوالده (سبتميوس خيران) الذي قتله القائد الرومابي (روفينوس) فاتصل بسابور ملك الفرس، ولكنه ردّه وحقر رسله، فسار إليه أذينة الى المدائن وحاصرها سنة ٢٦٤ م، وكاد سابور يلتمس منه الأمان لولا حدوث حادث أكره أذينة على ترك الحصار والتراجع. وقد اتخذ لنفسه لقب ملك الملوك. ويروى أن مجلس الشيوخ الروماني منحه لقب «اغسطس» فصار مساوياً للقيصر، وأمر بوضع صورته مع صورة الامبراطور على النقود التي أخذت غنيمة من الفرس. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١/ ٩٥ لجواد علي.

الأول سنة ٢١٦ م، وزميل الأوغسطيين كان شيئاً من تاريخ الرومان. ولم يكن أقل شجاعة من رئيس من رؤساء العرب، وأنه السابق المتقدم الذي جاء بعده صفوة من القوّاد العرب كخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني وعمرو بن العاص وأضرابهم من القواد العظام الذين هزموا في حقبة قصيرة من الزمن جيوشاً عظيمة، وسيطروا على امبراطورية الساسانيين وعلى جزء عظيم من امبراطورية الامبراطور البزنطي. إن اسم هذا الامبراطور عربي الأصل ذلك أن «أودناتوس» يعني «أذينة»، وأن اسم زوجته «زنوبيا» وهو شيء من الاسم العربي «زينب»، أما الاسم «الزبّاء»[٣] الذي تسميه به الأسطورة العربية فهو اسم لأحد أسلافها. وان ابنهما الذي خلف «أودناتوس» يسمّى «آثنادور»[٤]، ويعني «هبة آثنا»، وليس هذا إلّا ترجمة للاسم العربي الذي يعد جدّه، وهو «وَهْب اللاب» أي «هبة اللات»، وهذا يعني أن «اللات» وهي إلاهة شاعت عبادتها في شبه الجزيرة العربية.

---

(٣) كأن هذا قد خالف فيه غويدي لكثير من المؤرخين الذين ذهبوا الى أن «الزبّاء» هي «زنوبيا» زوجة «أذينة». وقد ذهب غويدي نفسه الى هذا بعد صفحات قليلة في الكلام عليها. وفي كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» فصل تحدث فيه المؤلف عن سيرتها وفتوحاتها وحروبها مع الرومان. ١٠٣/١.

(٤) وهو يعرف في اليونانية بـ «أثينو دورس» (Athenodorus)، والزبّاء أمّه. وكان قاصراً، وقد تولّت الوصاية عليه.

إن تاريخ شبه الجزيرة العربية القديمة كتاريخ البلاد العامة بصفة شاملة محكوم بوجودها الجغرافي المشترك. ان الصحارى العظيمة في الشمال والشرق تفصل شبه الجزيرة عن سورية وعن بلاد بابل، وهي بذلك تحمي سكانها من خطر غزو الأعداء، كما كانت من العوامل التي عملت على الحفاظ على لغتهم وعلى خصائصها الوطنية. ان لغة البابليين كما نعرفها في النصوص التي قد ترقى إلى أربعين قرناً قبل التاريخ المسيحي، كانت قد عانت تبدلات عميقة باعتبار الصورة البدائية الأولى للغات السامية، في حين أن العربية في القرن السادس الميلادي لم تكد تبتعد في بعض أقسامها المهمة نوعاً ما، عن بنيتها النحوية، وذلك في مادة «الفعل»، وليس ذلك إلاّ بفضل عزلة أهلها العرب واستقلالهم. على حين أنهم منذ أن اختلطوا مع غيرهم من الشعوب بعد الاسلام، عرض للغتهم الشيء الكثير من التحولات التي كان بعضها مهماً.

لقد علمنا من الحوليات الآشورية أن الآشوريين قاموا بفتوحات حقيقية في عهد الملك سنحاريب، والملك أسرحدّون، والملك آشور بانيبال، ثم الملك نَبوخُدنُصّر، على أننا نعرف كم علينا أن نحذر ونشك في هذه الحوليات «الرسمية» للآشوريين والبابليين. وعلى أية حال لم تكن تلك الفتوحات إلاّ غزوات، وان سيطرتهم وسيادتهم كانت اسمية تقريباً، ولم تدم إلا حقبة يسيرة من الزمان.

وكـان الرومـان على عكس أولئـك الآشوريـين، قد عـرفـوا الفتـوحات واستـطاعوا أن يفعلوا ذلـك ويخضعوا بتنـظيم جميع العـالم المعروف في عهـدهم، ولكنهم لم يقـومـوا بـذلـك إلا في محـاولة واحـدة اندفعـوا فيهـا في جنـوبي بـلاد العـرب في عهـد الامبـراطور «أوغست» ولم يكتب لهم أيّ نجـاح. وان «إيليوس غـالوس» قـد تقدّم في جنـوبي بلاد العـرب، وحاصر «مـأرب» عـاصمة السبئيـين، غير أنـه اضـطر بعـد وقت قليـل إلى رفـع الحصار، وكان جيشه كثير العدد حسن العُدّة، ولم يكن في هذا الجيش إلاّ عدد قليل من المصريين.

إنه مع ذلك بغزو بطيء ولكنه إيجابي، قد خضـع له العـرب الشمـاليون شيئـاً فشيئاً، وذلـك يتمثل في أفكـار دينية ومـظاهر حضارية متفوقة للبلدان المجاورة لهم. وهذه الأفكار للبزنـطيين في الغرب، والساسـانيين في الشـرق، وذلك في عصر بعيـد في القدم، كما أحسّت بذلك الدول المزدهرة في اليمن في الجنوب.

ولم تلبث أن تكـونت ممالـك عـربيـة في الشمـال والـوسط، وبدأت تأخـذ شكلاً منـظماً أوّلياً عمـل بقوة عـلى تقدّمهـا. أنها ممالك الحيرة والغساسنة وكندة التي قامت في قلب شبه الجـزيرة العربية. وسنذكر بـإيجاز الأحـداث الأكثر بـروزاً لهذه الممـالك مستخلصـة من الأسـاطـير التي أوصلهـا الشعـراء والمؤرخـون العرب ابتداء من القرن السادس الميلادي. ذلك أن أقدم وثيقة

في اللغة العربية لا تتجاوز هذا القرن الذي هو عصر البطولة للعرب كما يقول «رينان»(٥).

ولنبادر بالقول إلى أننا نعرف الآن لهجة عربية يمكننا أن نصفها «بدائية أولية» (archaique) إلى جانب أشعار ما قبل الاسلام. إن في «حوران» في الجنوب الشرقي من دمشق وإلى شمالي الحجاز قد اكتشف منذ بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر كتابات اعتبرت بدائية، وأنها لغة دارجة متداولة، إن لم تكن اللغة الأدبية في هذه الامكنة. وربما كانت هذه خطوط واشارات لجماعة من الرعاة وليست كتابات على نحو ما رأينا الكثير من ذلك في وادي مكتّب في سيناء.

ليس في هذه الخطوط والإشارات كثير من الفائدة من الناحية التأريخية، ولكنها ذات قيمة من الناحية اللغوية. إنها العربية الشمالية الحقيقية، أو أنها، على وجه التحديد، لهجات دارجة تكلم بها أهلها إلى جانب اللغة التي كان النبطيون وغيرهم من العرب يتكلمون بها.

إننا نميز فيها ثلاث مجموعات هي:

الصفوية(٦)

---

(٥) مستشرق فرنسي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرف بآرائه الغريبة في الشعوب السامية.

(٦) الصفويون نسبة الى أرض الصفاة، وهم أعراب ورعاة كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والكلأ، وعلى هذا فهم قبائل متنقلة رعاة. وقد =

اللحيانية

الثمودية

وتمثل الأخيرة لغة آل ثمود المشهورين بين العرب، وأن وثيقة صغيرة قد اكتشفت وعرفت من هذه اللغة تعدّ أول وثيقة تحمل تأريخاً. لقد عرفنا الثموديين معرفة كافية مما ذكره المؤلفون الإغريق والرومان في القرن الخامس الميلادي، وان الثموديين كانوا يؤلفون جماعة الجيوش العربية التي استخدمها الرومان باسم: Equites Saraceni Thamudeni.

ومن خصائص هذه اللهجة القديمة الشمالية صيغة أداة التعريف وهي «ها»[7] كما في اللغة العبرانية، وليست «أل» كما

= ذهب علماء الكتابات الصفوية الى طابعها الشخصي الذي تحمله، أي أنها تخلو من دلالة سياسية أو عسكرية.

(٧) من المفيد أن نتوسع قليلاً في «أداة التعريف» فنقول: أن مكان أداة التعريف هو آخر الاسم في كثير من اللغات السامية، ففي لغات اليمن الجنوبية تكون أداة التعريف (آن) وتلحق آخر الاسم (غويدي، المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية ص ١٤). وربما كانت هذه «هَن» كما في العبرانية القديمة. ثم بدّلت مكانها فصارت تتصدر الاسم كما في اللهجة الصفوية والثمودية مثل «هجمل» ومعناه «الجمل». و «هبيت» ومعناه «البيت». والتشديد في الحرف الأول دليل على النون المحذوفة كما هي الحال في العبرية. ولما غيّرت هذه الأداة مكانها خصت الكلمة المنكرة بالميم.
واللحيانية ايضاً تتوصل الى التعريف بالهاء المفتوحة في أول الكلمة على أنه وجد في النقوش أداة التعريف في كلمة منونة وذلك نحو «هصلمن» أي الصنم.

في العربية نحو «فَرَس» التي تكون معرَّفة «هافرس»[٨].

وفي وثيقة صفوية نجد أن المدعوّ هامل بن سَلُم اشترى من المدعو «حَنيٍّ» الفرس بخمس «قطع معدنية» بقوله: أخذها

= وربما كانت هذه الأداة هي الهمزة والميم في لغة حمير من لغات الجنوب كما تذكر النصوص العربية. ويبدو من هذا العرض أن النون والميم متقاربان متبادلان، فقد روى النمر بن تولب الحديث المشهور: ليس من أمبر امصيام في امسفر (ابن يعيش، شرح المفصل «طبع أوروبا» ص ١٢٢).
وتنفرد العربية الشمالية عن أخواتها بهذه الأداة، ولكن الناظر في الأسانيد يجد أن النحويين على خلاف، فإن «أل» بجملتها حرف تعريف عند الخليل وسيبويه (حاشية الصبان ١٧٦/١). وفي «شرح الرضي على الكافية ١٣٠/٢» إن اللام وحدها أداة التعريف عند سيبويه. وجاء في هذا الكتاب أيضاً: وذكر المبرد في كتاب «الشافي» أن حرف التعريف الهمزة المفتوحة وحدها وإنما ضم اللام لئلا يشتبه التعريف بالاستفهام (المصدر السابق).
على أنا نرى أن اللام ربما كانت بدلاً من النون التي وجدناها في اللغات السامية، كما أن هذه اللام تطوى في اللفظ مع الاصوات «الشمسية»، ويقتضي هذا الطي ضرباً من التشديد والضغط على المقطع الأول.
أقول: رأي المبرد هذا جميل ذلك أنه يوصلنا بحقيقة هذه الأداة في اللغات السامية التي يسري عليها «نحو مقارن» غير أني أتوقف في كتاب «الشافي» هذا ذلك أني لم أجده في المعروف من آثار المبرد في المصادر التي ترجمت له.
ولو قلت: أنه «الكتاب الشافي» وليس كتاب «الشافي» لأقول أن الرضي أراد به «الكامل» لتوقفت أيضاً، وذلك لخلو «الكامل» من الكلام على «أداة التعريف».

(٨) جاء في كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٤٨/١» وكأنه اجتهاد المؤلف، وهو: أن «أل» قبل اسم القبيلة في كثير من الكتابات =

مِجَنِّي هافرس بخمسة «أماني» (Amani?) «akhadha mihannay hafaras bikhamsat amni» وأن آخر يدعى أنعم بن قاحش قد ذكر أنه غنم غنيمة في سنة حرب النبطيين «وغنم سنة حرب نَبَط Waghanama sanat harb nabat»، إن هذه الوثيقة ذات أهمية خاصة بسبب ما تحمل من تاريخ فيها ممّا قد يكون من المحتمل موافقاً لسنة ١٠٦ إبّان حكم تراجان Trajan.

إن هذه الخطوط تنتهي في الغالب بالكلمات الآتية: «فوها اللّات سلام» Fuha Salam Allat (fa)، والتي من الممكن أن تترجم بقولنا: «تحية أمام اللات».

نرى في هذه الوثيقة اسم الإلاهة العظيمة «اللّات». ومما يلفت النظر أن هذه الوثيقة قد كتبت بالخط العربي الجنوبي، وليس بالخط الآرامي الذي كان شائعاً منذ القرن الخامس الميلادي في هذه الجهات إلى ما وراء الفرات. وهذه الظاهرة التي تتصل بوجود الخط الجنوبي تجعلنا نفترض أنه منذ بداية

= الصفوية يشير إلى أن لغة هذه القبائل الشمالية عربية شمالية هي «لغة القرآن». وهو يشير إلى هذه القرابة ويستدل بما ورد من الاعلام ومنها «قصيو» وهو «قُصَي»، و «قصير بن كلبو» وهو قصي بن كلاب..

ويرى جماعة من أهل العلم بالكتابات السامية القديمة أن الصفويين جاءوا من شبه جزيرة العرب وقطنوا في الشمال في منطقة «الصفاة».

ومصطلح «الصفويين» مما أطلقه «هاليفي» وهو يبحث في هذه الكتابات والنقوش الشمالية في «اللجاة» و «حوران».

التاريخ المسيحي كان للحضارة في شبه الجزيرة العربية مركز رئيس في الجنوب أي بلاد اليمن، وكان تأثيره يتجاوز الجهات الجنوبية الى المراكز العربية في الشمال.

مملكة الحيرة

ولنعد إلى الممالك التي أنشئت في شمالي بلاد العرب، ومنها تلك التي نشأت في «الحيرة». إن الحيرة في الأصل كلمة سريانية وتعني «الحصن» أو المعسكر وهي «حَيْر»[٩] في النطق السرياني. والمدينة من الحواضر ذات الموقع الحسن، وأن الهواء فيها نقي حسن وذلك كما في المثل القائل:

إن ليلة ونهاراً يقضيان في الحيرة لأحسن من تناول الأدوية طوال عام كامل[١٠].

إن هذه الصفات الجيدة البيئية قد عملت على جذب

---

(٩) ذهب أهل العربية الى أن «الحيرة» مادة عربية، وذهب آخرون إلى أنها سريانية. وأنا أقول أن كلا الطرفين على صواب والكلمة سلمية قديمة وان مادة (ح ي ر) تفيد المكان في هيئه مخصوصة.

(١٠) هذا معروف لدى الدارسين العرب فقد أثر عن الاوائل انهم قالوا: «يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنه» انظر الاصطخري، المسالك ص ٨٢ (عن المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام) وفي «خاص الخاص» للثعالبي كلام في هواء الحيرة في مجلس الخليفة هارون الرشيد.

السكانَ الكثيرين إلى الحيرة مما أدّى إلى ازدهارها، وهؤلاء السكان هم في الغالب من قبيلة تنوخ الذين ضربوا خيامهم فيها، وكذلك من «العباد» الذين ينتسبون إلى قبائل مختلفة مسيحية، وهم يؤلفون جملة سكان المدينة، ثم جماعة أخرى من جملة قبائل مختلفة متحالفة فيما بينها. والعباد جمع «عبد» ولعل الاسم الكامل لهم «عباد اللّه» أو بالأحرى «عباد المسيح»[١١]. وهو الاسم الذي ربما أطلقوه على أنفسهم، والذي جعلهم يفخرون به وسط السكان الآخرين الوثنيين وعبدة الأصنام الذين يحيطون بهم.

إننا لا نعلم بصورة أكيدة الحقبة الأولى لمملكة الحيرة، وكذلك في العادة كل البدايات التي تتصل بالممالك والمدن تقوم الأسطورة مقام التاريخ. العلاقة الغرامية بين عدي بن ربيعة ورقاش أخت جذيمة الابرش[١٢]، وغضب عديٍّ هذا أول الأمر، ثم حبه العاطفي لابن أخته عمرو بن رقاش[١٣]، والمغامرات العجيبة لهذا الأخير الذي اختطفه الجن[١٤]، ثم الحروب بين جذيمة وبين عمرو بن الضًرب وبين الحسناء «الزباء» (زنوبيا

---

(١١) انظر مادة «عبد» في «تاج العروس».

(١٢) انظر أخباره في تاريخ الطبري ٢/٢٨، وما بعدها. وانظر مروج الذهب ٢/١٦.

(١٣) انظر الاغاني ١٤/٧٢.

(١٤) انظر تفصيل ذلك كله في كتاب الأخبار الطوال ص ٥٦.

عند المؤلفين القدامى)، جميع هذا من قبيل الأساطير التي يصعب علينا أن نفيد منها جانباً تاريخياً مما امتزج بالاسطورة.

ومنذ مجيء الأسرة اللخمية، أو بني نصر صرنا نعرف شيئاً عن تاريخ الحيرة، وبإمكاننا أن نحدد تاريخياً هذه البداية بالنصف الثاني من القرن الثالث المسيحي، غير أن الملك الأول الذي اكتسب في عصرنا بعض الشهرة وهو امرؤ القيس(١٥) الأول، وذلك لأن إليه من غير شك ينبغي أن ننسب نقش «النمارة»(١٦) الذي وجده المسيو «دوسو»(١٧) في بلاد الصفا من شمالي سورية(١٨). وقد أغنى هذا النقش مجموعة النقوش العظيمة في متحف اللوفر، وتأتي أهمية هذا النقش مما له من الناحيتين التاريخية واللغوية. انه يبدأ بهذه الكلمات:

«في نفس مَرَ القيس بَر عمرو ملك العرب كلها»(١٩).

---

(١٥) وهو ابن عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة، وعمرو هذا هو ابن احت جذيمة الذي ذكره المؤلف قبل سطور باسم عمرو بن رقاش. انظر أخباره في الطبري ٢/٦٤، وقد نعت بالمحرّق وفيه خلاف.

(١٦) وعلى هذا يكون امرؤ القيس أول ملك من ملوك الحيرة يصل خبره الينا مدوّناً وكذلك خبر وفاته سنة ٣٢٨ م. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/١٨٩

(١٧) هو رينة دوسو في كتابه «العرب في سورية قبل الاسلام».

(١٨) «النمارة» حرّة تقع في جنوب سوريا شرقي جبل الدروز لا شمالها.

(١٩) ما كتب على القبر مؤلف من خمسة اسطر، وهذا نصها:

١ - في نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج. =

إن هذا النقش يشتمل على عربية قديمة ذات كلمات دخيلة من أصول أجنبية نحو «نفس»، وتعني «بناء لقبر ظاهر»، وكذلك كلمة «بَر» بمعنى «ابن»، وهاتان الكلمتان في هذا النص يجعلانه بالأحرى اللغة الفصيحة الأدبية، أو لغة الكتابة التي كانت خاضعةً للتأثير الآرامي، وليس اللغة المتداولة في درج الكلام اليومي في هذه الحقبة في هذه الأمكنة. وليس من غرابة في أن يكون لهم نمط من لغة للكتابة وآخر يدرج به الناس في كلامهم، فقد كان للنبطيين شيء من ذلك في النبطية

= ٢ ـ وملك الاسدين ونزرو وملوكهم وهرب مدحجو عكدي وجا

٣ ـ بزجى في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه.

٤ ـ الشعوب و وكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملغه.

٦ ـ عكدى. هلك سنة ٢٢٣ يوم بكسلول بلسعد ذو ولده.

انظر العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ٢٠٣، ولفنسون ص ١٩٠ (تاريخ اللغات السامية)، ريه دبسو، العرب في سورية قبل الاسلام ص ٣٣ عن «المفصل» لجواد علي ١٩١/٣.

وجاء في «المفصل: أن الترجمات اختلفت لهذا النص، وكأنه صاغه بلغة عربية معاصرة على النحو الآتي:

١ ـ هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي نال التاج.

٢ ـ وملك الأسدين ونزار وملوكهم، وهزم مدحجاً بقوته وقاد.

٣ ـ الظفر إلى أسوار نجران، مدينة شمر، وملك معدّاً واستعمل أبناءه على.

٤ ـ القبائل. وكلهم لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه.

٥ ـ في القوّة. هلك سنة ٢٢٣ يوم بكسلول. ليسعد الذي ولده

انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩٢/٣ ـ ١٩٥، ٤٣٧/٣.

التي من أصل عربي. ولما كانت لغة أهل الحيرة لا تكتب أي أنها لغة منطوق بها فقط في هذه الحقبة، فان النقوش لا بد أن تكون بلغة آرامية حيث يلمح فيها غالباً شيء من لغة عربية.

إن الملك امرء القيس الذي أشارت إليه الكتابة المذكورة آنفاً كان يعد نفسه ملك جميع العرب، إنه سيد جملة قبائل هي بنو أسد والنزاريون ورؤساؤهم جميعاً، وكذلك قبيلة مذحج، وكان مقرّه في نجران في مدينة شامر Šămir.

وبحسب التزامُن يمكن أن نميز في «شامر» ملك السبئيين شامر يخرعش(٢٠) الذي حكم مع أبيه ابتداءً من سنة ٢٧٠ م، كما انفرد بالحكم ابتداءً من سنة ٢٨١ م، وكانت نجران المدينة الشهيرة في البلاد العربية الجنوبية.

كان الخط نبطياً مع خصائص غريبة مثل رسم (لا) الذي يقرب كثيراً من نظيره في العربية. وأما ما يزيد في أهمية هذا النص المكتوب فهو التاريخ الذي يشير إليه. لقد كان العالمان «إيشهورن» و«كوسان دي پرسڤال» قد حدّدا بداية حكم امرىء القيس الأول في أول القرن الرابع الميلادي، وهو الذي تدعوه الأخبار العربية عامة «ابن عمرو»، وهكذا يمكن أن

---

(٢٠) لعله يهرعش، والمثبت في النص من خطأ الطبع، و«يهرعش» هذا هو المعروف بـ «شمر يهرعش» لدى المسلمين. انظر المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/١٩٧.

يكون أكيداً في تاريخ الحيرة أن «مَرَ القيس» الذي ورد في نقش النمارة (وهو النص المشار إليه هو امرؤ القيس في الجداول التاريخية العربية، وان التاريخ الصحيح لوفاته هو السابع من كانون الأول سنة ٣٢٨ م[٢١]، وأنه البداية المهمة جداً في تعيين تاريخ ملوك الحيرة[٢٢].

ان الحفيد المتأخر لامرىء القيس هذا هو النعمان الأول الذي حظي بشهرة ذات دويّ كبير في الشعر العربي القديم، وفي الأخبار التاريخية الأسطورية من تاريخ العرب. وكان تحت إمرته كتيبتان من الفرسان تدعى الأولى «الدَوسر»[٢٣]، وتدعي الثانية «الشهباء»[٢٤]، وبإمكاننا أن ندرك الأهمية التي أولاها النعمان إلى هاتين الكتيبتين[٢٥] في صراعه مع القبائل المجاورة حيث كان للفرسان دور بارز فيه.

---

(٢١) كأنه لا خلاف بين التاريخين، فالذي ذكر من سنة (٢٢٣) هو من تقويم بصري أي في اليوم السابع من شهر كانون الأول من سنة ٣٢٨ م.

(٢٢) وجاء في «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٩٧/٣» إن المؤلف جواد علي عدّه أول نص عربي جاهلي يشير إلى حرب نشبت بين مملكة الحيرة ومملكة سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت في عهد أول ملك من ملوكها وهو «شمر يهرعش».

(٢٣) وأهلها تنوخ، وفي مجمع الامثال ١ /٧٨ «ايطش من دوسر».

(٢٤) وأصلها من الفرس. انطر تاريخ الطبري ٢ /٧٣ و ٢ /٦٧

(٢٥) وقد نُسب له أيضاً خمس كتائب هي: الرهائن والصنائع والأشاهد والكتيبتان المذكورتان، وذكر أنه كانت له كتيبة تسمى الوضائع. . انظر بلوغ الارب ٢ /١٧٦.

كانت هذه المملكة خاضعة للساسانيين إلى الحدّ الذي كلّف يزدجرد سنة (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) الامبراطور الساساني النعمان، بأن يقوم بتهذيب ابنه بهرام جور[٢٦]. إن تشييد النعمان «للخَوَرْنَق» وكذلك «للسدير» مما أضاف إشراقاً إلى عصر النعمان هذا.

إن كلمة «خَوَرْنَق» من غير شك إيرانية، وقد لزم أن يكون اصلها القديم «خُوَرْنقا»[٢٧]، التي اقترح النعمان أن يكون معناها: «الذي يغطّي». لقد كان الخورنق من أعاجيب الفن الذي يرجع الفضل فيه إلى المهندس المعمار اليوناني الذي يدعى «سِنمّار»[٢٨] إليه الاسطورة، وتحكي هذه الأسطورة: أن فكرة كئيبة عرضت للنعمان وهو في أعلى هذا القصر العظيم

---

(٢٦) وأمره ببناء الخورنق سكناً له، وأنزله إياه، وأمره بإخراجه الى بوادي العرب. ذكر ذلك جواد عن تاريخ الطبري ٢/٧٣.

(٢٧) والخورنق: نبت. والخورنق: اسم قصر بالعراق، فارسي معرّب، والخورنق نهر. والخورنق. المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب. أصله خرنكاه، وقيل خرنقاه معرّب، قال الأعشى:

ويُجبَى إليه السَّيْلَحون ودونها
صريفونَ في أنهارها والخورنقُ

انظر «اللسان» (خرنق).

(٢٨) معمار روماني ارتبط اسمه بالخورنق الذي بناه النعمان، ومع ذلك فقد أمر به النعمان فطرح من أعلى القصر. ويضرب بهذه النهاية المثل في أدب العرب فقالوا «جزاء سنّمار»

الذي كان ينعم فيه بسلطانه وغناه فقال في نفسه: أن جميع هذا السلطان وهذا الثراء هو اليوم لي وسيكون غداً إلى آخر. فتولد له في تلك الحال فكرة التخلّي عن العالم وقضاء ما بقي له من حياته في العزلة والعبادة:

فتفكّر ربُّ الخُوَرنَق إذ أشـ
رَفَ يوماً وللهدى تفكيرُ[٢٩]
سرَّه مالُهُ وكثرة ما يمـ
ـلكُ والبحر معرضاً والسديرُ
فارعَوَى قلبُه وقال: وما غِبْـ
ـطةُ حيٍّ إلى الممات يصيرُ[٣٠]

إن هذه الاساطير التي تتصل بالملوك ذوي السلطان ومؤدّاها أنهم فجأة يتخلّون عن السلطان ويخلدون الى عزلتهم[٣١] وعبادتهم، كثيرة في التاريخ القديم.

ومثل هذه الأسطورة التي تحكى عن النعمان ما حُكي عن «كالب» ملك الحبشة الذي تحوّل في آخر حياته إلى راهب بعد أن قهر ملك اليمن وبلغ أوج مجده. أن المصنفات العربية تشير

(٢٩) الخورنق قصر قريب من الحيرة، أما السدير فكان على مسافة بعيدة بينها وبين الشام. وقد أشار المتنخل الشاعر الجاهلي الى القصرين في شعره.

(٣٠) الأبيات في جمهرة من مصادر الشعر الجاهلي. وقد اثبتها جواد علي في «المفصل»

(٣١) انظر حبر زهد النعمان في الطبري ٢/ ٧٣ وما بعدها.

إلى أن سقراط وأفلاطون قد تحوّلا إلى رجلي دين في آخر حياتهما.

وقد كان النعمان وثنياً، وقد اضطهد النصرانية، ومنع العرب من التوجّه إلى القدّيس (سيمون) (S. Simon Stylite) الناسك وسماع موعظته. غير أن القدّيس بدا له في الحلم وعنّفه بشدّة وضربه بالعصا عدة ضربات. وقد سمح النعمان بعد قليل بممارسة النصرانية في الحيرة، وأذِنَ ان تُبنى فيها الكنائس، واستقبل القسس والبطارقة. وبإمكاننا أن نستنتج أن النعمان بقي وثنياً[٣٢] على منحه للنصارى الحرية الدينية، وهذا ما أكده المؤلفون العرب. ولهذه الحقيقة أهميتها، ذلك أن إثبات الديانة المسيحية يعني رجحان طائفة «العِباد» الذين يؤلفون السكان المسيحيين في هذه المدينة، الذين يمارسون الأثر العظيم على أفكار العرب لهذه النخبة القليلة من أهل المدينة.

وخلف النعمان نحو سنة ٤١٨ م ابنه المنذر الأول الذي حكم إلى غاية سنة ٤٦٢ م، ويسميه المؤلفون الإغريق والسريان «مُندار»، في حين أن الاسم عند العرب بصيغة اسم الفاعل. لقد امتاز هذا الأمير بمزايا عالية جداً، وفي عهده لعبت المملكة دوراً مهماً في أحداث ذلك العصر. لقد أجبر

---

(٣٢) أشار ابن خلدون في تاريخه ٢/٢٧١ إلى تنصر النعمان كما أشار إليه لويس شيخو في شعراء النصرانية، وانظر «المفصل» لجواد علي ٧/٢٠٤.

رجال الدين الفرس على تتويج الملك بهرام جور الذي سبق ذكره، وكانوا قد استبعدوه ليمنحوا حق الجلوس على العرش إلى أمير ساساني آخر. وقد ادّعى مؤلفون عرب أن الذي قام بهذا المسعى هو النعمان وليس المنذر الذي أيّد بهرام جور، ومن أجل ذلك نحن أمام قضيتين[٣٣]، بيد أن اتفاق الزمن يرينا أن القضية الثانية غير صحيحة. لقد ساعد المنذر أيضاً بهرام جور في حربه مع البزنطيين، غير أن ذعراً واضطراباً قد سيطرا بصورة مفاجئة على جنود المنذر الذين اعتقدوا أن حركة التفاف قد طوّقتهم، وأنهم قد تدهوروا في النهر، وهكذا غرق الكثير منهم في الفرات وذلك في سنة ٤٢١ م.

لقد شارك ملوك الحيرة في الحروب بين الساسانيين والبزنطيين، وان النعمان الثاني حفيد المنذر، كان قد جُرح في معركة الخابور بالقرب من «سيرسيوم»[٣٤]، وتوفي بعد ذلك إثر

---

(٣٣) أول من فطن إلى هذا التناقض ابن الأثير الذي نقل الروايتين. لقد ذكر أن بهرام جور قد سُلّم الى المنذر بن النعمان، وذكر أن يزدجرد الأثيم سلّم بهرام الى النعمان بن امرىء القيس. ولا شك أن بعض العلماء قال هذا، وبعضهم قال ذاك إلا أنه لم ينسب كل فول الى قائله. انظر ابن الاثير، الكامل ١٦٢/١.

ويجمع اليعقوبي الروايتين السابقتين بشكل مختصر، وفيه: يدفع يردجرد ابنه بهرام الى النعمان وساعده المنذر فيما بعد في استرجاع التاج. انظر تفصيل الخبر في «المفصل» لجواد علي ٢٠٧/٣.

(٣٤) لعلها «قرقيسياء» كما يشير إلى ذلك المؤرخون، وهي مدينة ظلت معروفة =

جراحه وذلك في سنة ٥٠٣ م. وأشهر ملوك الحيرة من غير شك هو المنذر الثالث المتوفي سنة ٤٥٤ م. بعد حكم دام ٥٠ سنة. وقد وصفه (Procope) بروكوب نفسه بقوله: كان ذكياً جداً وقائداً عظيماً. ومنذ حكم الامبراطور قسطنطين (٥١٨ م) خُرق السلام بين الساسانيين والبزنطيين، وقد شارك المنذر بنشاط في الحرب، ولم يحجم قسطنطين عن أن يرسل مبعوثاً (دبلوماسياً) لهذا الملك الصغير، ملك الحيرة من أجل أن يعيش الطرفان بحرية.

وفي الوقت الذي استقبل فيه المنذر[٣٥] مبعوث جستنيان استقبل أيضاً الممثل الدبلوماسي لملك اليمن. وكان المنذر قد لعب دوراً كبيراً في حرب كوباد (Cobad)، فقد هاجم البلاد الافريقية، وكان في كل الظروف بمنجاة من مطاردة البزنطيين.

= بهذا الاسم إلى أيام العباسيين، وتسمى اليوم «البُصَيرة» وهي على مسافة قريبة من مدينة دير الزور على الحدود العراقية السورية. انظر خبر المعركة في «المفصل» لجواد علي ٢١٦/٣.

(٣٥) لقد تمكن المنذر من أسر قائدين رومانيين سنة ٥١٩ م هما «ديموستراتوس» و «تيموستراتوس» ويوحنا، وأراد القيصر أن يفكّ أسر هذين القائدين، ويعقد صلحاً وحلفاً بين الروم والمنذر فأرسل على ما يظهر - رسولاً خاصاً الى المنذر هو إبراهيم والد المؤرخ «نونوسوس» ومعه شمعون الأرشامي و «سرجيوس» اسقف الرصافة وذلك في سنة ٥٢٤ م. انظر المصدر السابق ص ٢١٩.

مملكة الغساسنة

لقد كان في هـذه الحقبة عـلى حدود البـزنطيـين دول عربيـة أخـرى قـد أصبحت ذات قـوة بحيث غـدت منـافسـة لمملكـة الحيـرة، وقد أفـاد البزنـطيون من هـذا الحدث لصـالحهم ضد السـاسـانيـين وأتبـاعهم. وهـذه الـدولـة الجـديـدة[٣٦]، وهم اللخميـون* الذين أسسـوا دولة الغسـاسنة. إن تـاريخ الحقبـة الأولى لهـذه المملكة تغلب عليـه الأساطـير على نحـو ما كـانت الفترة الأولى من تاريخ مملكة الحيرة.

لقـد جاء الغسـاسنـة من جنـوبي شبـه الجـزيـرة العـربيـة، واستقـروا في بلاد بُصـرى التي وجدوا أنها كـانت مسكونـة من قبـائل عـربية[٣٧] التي كـانوا قـد خضعوا لهـا خلال فتـرة زمنية معروفة. وفي قرابة القرن الرابـع كان ثعلبـة[٣٨] بن عمرو قـد تسلم من البزنطيين الحماية للبلاد التي جعلته قادراً على تأسيس مملكة الغساسنة بعد فترة من الزمن، غير أن الحكم انتقل بعـد

---

* لعل المؤلف أراد «التنوخيين» لأن «اللخميين» هم الذين أسسوا مملكة الحيرة.

(٣٦) وعـرب هذه الـدولة يمـانيون وقـد عـرفـوا بـ «آل غسـان» وبـ «آل جفنـة» و بـ «الغساسنة».

(٣٧) ويدعون بـ «الضجاعمة» وهم من سليح بن حلوان بن قضاعة.

(٣٨) ثعلبة بن عمرو بن المجـالد بن عمـرو بن عدي بن مـازن بن الأزد، ومن نسله كان ملوك غسّان

ذلك إلى آل جفنة، ومهما يكن من شيء، فان الغساسنة منذ النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي بدأوا يظهرون تاريخياً حلفاء للبزنطيين.

وفي سنة ٣٧٣ م، ومن المحتمل بعد موت الحارث الثاني تسلمت السلطة أرملته مارية أو ماوية[٣٩]. وكانت هذه الأميرة محاربة حالفها النصر في كل موقعة كما تشير الأخبار، وأنها أجبرت البزنطيين إلى أن يطلبوا الصلح، وأنها قبلت ذلك بشرط أن يسلموا لها الأسقف[٤٠]، في شخص رجل مقدس يدعى موسى. وهذه الأسطورة المتصلة بالتاريخ الكنيسي ترينا تقدم النصرانية بين العرب في هذه البلاد، كما ترينا كيف انعطفت أفكارهم شيئاً فشيئاً فعدلوا عن عبادة الأصنام ليعتنقوا عقيدة تتفوق على ما هم فيه.

وقد حمل بعض ملوك الحيرة وكذلك بعض ملوك غسان لقب «مُحَرِّق» ولا سيما الملك جفنة الثاني، وليس لنا إلاّ أن نفسره، كما يدل عليه في العربية، أنه الذي يُحرِّق ويشعل ناراً

---

(٣٩) في «المفصل» لجواد علي ٣/٣٩٧: أن حكم ماوية كان قبل تولّي الغساسنة.

(٤٠) حاربت الملكة مارية الروم مراراً، وانتصرت غير مرّة، ثم تصالحت معهم. وكان من جملة ما اشترطته عليهم أن يُسقَّف على عربها راهب اسمه موسى كان يتعبّد في بادية الشام، فوافق القيصر على ذلك، وكان هذا الراهب كاثوليكياً معارضاً لمذهب أوريوس»

عظيمة، وقد قيل في تفسير ذلك أقاصيص تتصل بالملوك الذين حملوا هذا اللقب، ولكن هذه الأقاصيص لا تتجاوز في الأصل التفسير الذي يستفاد من المعنى اللغوي، شأنه شأن كلمة «معلّقات» التي تعني القصائد السبع[٤١] المشهورة التي فسِّرت على أنها عُلِّقت على الكعبة، وذلك استفادة من المعنى اللغوي للكلمة. إن عدم وجود أداة التعريف يحمل على النظر في كلمة «محرِّق» أنها اسم علم، وقد يكون من المحتمل اسم إله أو اسم بطل أسطوري.

لقد حصلت مملكة غسان في القرن السادس على أهميتها الكبرى، متزامنة في ذلك مع السطوة الكبيرة التي كانت في هذه الفترة لمملكة الحيرة. ومن هنا كان التصادم بين القوتين أمراً لا يمكن تجنبه، وذلك أن الطرفين يتبعان قوّتين متعاديتين وهما الفرس والبزنطيون، فكان عليهم اضطراراً أن يتباغضوا بالرغم من فترات سلام عابرة بينهما كما يبدو ظاهراً. لقد خاض «جَبَلة» الثالث أو «الحارث الأكبر» حروباً على «المنذر الثالث»، وهُزم فيها، وكانت زوجته «مارية» ذات القرطين الشهيرين المعلّقين في أذنيها المؤلَّفين من جوهرتين كبيرتين بحجم بيضة الحمام.

---

(٤١) لقد اتضح الرأي في مسألة «المعلقات» فكثرت الدراسات فيها وانتهت الى ما يقرب استبعاد الكلمة، وأنها لا تعني القصائد السبع الطوال المشهورة.

غير أن الحارث الخامس من ملوك غسان هو أعظم ملوك الغساسنة والعدو اللدود لمملكة الحيرة، وهو ابن الحارث الأكبر وأمه مارية. وقد منحه جستنيان رتبة بطريق، وهذا ما جعله في أعلى مرتبة بحيث أطلق معاصروه عليه لقب الملك. وهذا ما يمنح للأمراء التابعين للبزنطيين، وجعل جستنيان بين يديه قيادة عامة العرب المحاذين للحدود الرومانية، وبذلك يتم التوازن بين طرفين هما الغساسنة وملوك الحيرة اتباع الفرس.

إن الحارث الخامس والمنذر الثالث هما اللذان كانا يسيطران على التاريخ العربي طوال القرن السادس، وقد كان المنذر يتغلّب دائماً على خصمه الغساني ولا سيما في سنة ٥٤٤ م في المعركة التي اسر فيها ابن الحارث الغساني، وقدّمه قرباناً إلى الالاهة «العُزّى»، ولكنه اضطر إلى السقوط بعد عشر سنوات.

إن الأخبار العربية تشير إلى ثلاث معارك في هذه الحرب: معركة «عين أُباغ»، ومعركة «حِيار»، ومعركة «حليمة»، غير أن المعركةالأولى لم تبدأ إلاّ في زمن متأخر، وقد توفي المنذر في حزيران من سنة ٥٥٤ م، وليس في «عين أباغ» بل في «حيار» بالقرب من قِنّسرين على مسافة يومين من مدينة حلب.

أما معركة «حليمة» فيبدو أنها كانت نفس معركة «حيار». و «حليمة» اسم بنت للحارث الخامس، وهي التي أمرها أبوها

ان تمسَّح بالخلوق مئة محارب تختارهم اختياراً[٤٢].

غير أن «حليمة» أيضاً اسم لموضع هو وادي حليمة الذي أشار إليه الشعراء حين ذكروا «مرج حليمة» في شعرهم الذي هو المصدر التاريخي في هذه الحروب فقد قالوا: «الشعر ديوان العرب». ومن هؤلاء الشعراء ابن أبي الرَلّة الذي أشاد بملوك غسان وبالابطال الذين سقطوا في المعركة. لقد قالوا: أن من سقط في المعركة وخَلَد فيها إلى السكون لم يمت وذلك لأنّ الميت الحقيقي هو الذي يبقى يعاني حياةً بائسة:

ليس من ماتَ فاستراح بميتٍ
إنما المَيْتُ ميِّتُ الأحياءِ

وبعد عشر سنوات أي في سنة ٦٦٣ م وبعد موت خصمه توجّه الحارث إلى القسطنطينية فكان ظهوره فيها مما فرضه على الإغريق فيها، وقد قيل: أن الرومان نبّهوا قسطنطين الثاني ونصحوه أن يلتزم بالهدوء، وهدّدوه بوجود الحارث.

وفي قرابة القرن السادس بدأ انحطاط كل من مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة. وقد خلف عمرو بن المنذر الثالث أباه المنذر وذلك في سنة ٥٦٢ م، وكان قوياً غير أنه فظّ الأخلاق، ولم يسلم من نقد الشعراء وهجائهم الحاد، وكانوا ينبزونه بلفظ

---

(٤٢) انظر تفصيل هذا كله في «المفصل» لجواد علي ٣٩٨/٣ - ٤٠٣.

«المحرِّق». وكان الشاعر طرفة بن العبد أحد الذين قتلهم.

وبحسب ما وصل الينا من الأخبار والروايات أن الملك أرسله مع خاله «المتلمِّس» إلى عُمان، وزوّدهم برسالة دُعيت «الصحيفة» إلى حاكم ذلك الاقليم يأمره فيها أن يقتلهما حين وصولهما إليه. غير أن «المتلمِّس» قرأ الرسالة «الصحيفة» وحده فهرب ونجا، ولقي طرفة حتفه. وقد كان شاهداً على قوة عمرو بن المنذر وسطوته وعلاقته مع الامبراطور البزنطي، إن الامبراطور من غير شك كان يدفع بصورة منتظمة مبلغاً من المال إلى ملوك الحيرة ليكسب بذلك ولاءهم وحيادهم إن لم تكن محالفتهم، وذلك في نزاعه وحروبه مع الساسانيين.

لقد أراد قسطنطين أن يُنهي هذا الذي جرى عليه البزنطيون من العمل الشائن، غير أن عمرو ما لبث أن أعلن الحرب على الغساسنة أتباع البزنطيين. ولكن كبرياء عمرو هذا كانت نحساً عليه، فقد شتم بني تغلب في شخص رئيسهم، وكان بسبب ذلك أن هجم عليه عمرو بن كلثوم الشاعر فقتل ملك الحيرة «عمراً»، وإلى هذا يشير الشاعر الأخطل وهو يفتخر بقومه إلى أن أخواله:

قتلوا الملوك وكسروا الأغلالا[٤٣]

---

(٤٣) عجز بيت للشاعر وصدره: «أبني كليبٍ إنّ عَمَّيَ اللذا».

وقد خلف قابوس أباه عمراً، وهو بالرغم من شجاعته لم ينجح في حروبه مع الغساسنة.

وفي قرابة سنة ٥٨٠ م ارتقى العرش أبو قابوس النعمان الثالث. وقد أشار إلى ذلك الشعراء، وهو معروف أكثر من غيره من ملوك المناذرة الآخرين، على أنه لم يكن ألمعهم وأبرزهم. وقد حصل على العرش على حساب أخيه الأسود بمساعدة عدي بن زيد(٤٤) الرجل ذو السطوة في بلاط كسرى أبرويز، غير أن النعمان بعد فترة وجيزة كان يشعر بريبة نحو هذا الذي أحسن إليه فقتله، وكان النعمان قد فقد ثقة كسرى الذي صار ينظر إليه عدوّاً وليس تابعاً موالياً، فقبض عليه وأودعه السجن مدةً حتى هلك بالطاعون، وقيل: إنه مات مسموماً، وقالوا أيضاً: أنه مات بأرجل الفيلة التي داسته، وتلك عقوبة استعملها كسرى مع أعدائه.

وقد ذكر الشاعر سلامة بن جندل(٤٥) أن النعمان عاش طويلاً في قصر أنيق، وأنه ختم حياته تحت سقف صنع من

---

(٤٤) هو عدي بن زيد العبادي الشاعر، من دهاة الجاهليين، من أهل الحيرة، كان يحسن العربية والفارسية، واتخذه كسرى من خاصته وجعله ترجماناً بينه وبين العرب. سكن المدائن... انظر الاغاني (ط الدار) ٢/٩٧، سمط اللالئ ٢٢١.

(٤٥) انظر «سلامة بن جندل الشاعر الفارسي» لفخر الدين قباوة، حلب ١٩٦٩.

صدور الفيلة. لقد كان النعمان آخر الأسرة اللخمية، وذلك لأن خلفه إياس كان طائياً وليس من لخم. وكان ذلك آخر حكم هذه المملكة وذلك لأن إياس قد حكم وإلى جانبه موظف فارسي كبير يصرِّف شؤون حكومته. وعلى هذا فقد كان العصر الزاهر للمنذر الثالث هو أزهر عصور المملكة، ولم تعد الحيرة إلّا إقليماً ساسانياً.

وبعد وفاة النعمان بقليل وقرابة سنة ٦٠٤ م وقعت معركة ذي قار المشهورة حيث هزم العرب ـ ونخص بذلك ـ قبيلة بكر بن وائل جيوش الفرس. وقد فتحت هذه المعركة سلسلة الانتصارات العربية على الساسانيين.

إن سقوط الغساسنة لم يكن أقل سرعة منه في مملكة الحيرة، لقد خلف الحارث السادس سلفه العظيم الحارث الخامس. وأن الحارث الخامس هذا كان قد حصل قرابة سنة ٥٨٣ م على بعض الفوائد متغلباً على المنذر الرابع في «عين أُباغ» غير أن هذه المملكة قد سقطت.

إن خلفه عمرو الرابع كان معروفاً بفضل ما أشاد به الشعراء الذين وجدوا مكاناً في بلاطه، وأشادوا بمن خلفه، وقد كان هؤلاء من الكثرة بحيث يتساءل الدارس فيما إذا كان هؤلاء رؤساء معاصرين له وليسوا أمراء حكموا البلاد.

وقد حمل هؤلاء الملوك لقباً هو «خير الفتيان». وقد آل

أمرهم إلى أن يتغلب عليهم جماعة من السفلة الذين يفوقونهم قوة وسطوة، ثم اضمحلت المملكة الغسّانية بسيطرة المسلمين.

مملكة كندة

بقي علينا أن نتكلم بإيجاز على مملكة ثالثة كنا قد أشرنا إليها في أول هذه المحاضرة إلى جانب مملكتي الحيرة والغساسنة، تلكم هي «مملكة كندة» التي برزت في نهاية القرن الخامس في وسط شبه الجزيرة العربية، والتي كان من جملة أمرائها الشاعر العظيم امرؤ القيس.

وقد اعتُبر حُجْر آكل المُرار[٤٦] مؤسس هذه المملكة وقد كان قريباً جداً من الحميريين في الجنوب ولكنه لم يتأثر بهم. إن وضع كندة هذه بإزاء الحميريين يشبه وضع اللخميين بإزاء الساسانيين من بعض الوجوه كما يشبه وضع الغساسنة بإزاء البزنطيين.

غير أن العدوّ المَخُوف لكندة هو ملك الحيرة. وكان أشجع ملوك كندة الحارث بن عمرو الذي آل به الأمر إلى أن يكون

---

(٤٦) حجر آكل المرار سيدة كندة وهو أول ملوكها. انظر ابن خلدون ٢/٢٧٢. وفي الخزانة ٣/٥٠٢ ـ ٥٠٣ أن في «آكل المرار» خلافاً أهو حجر بن عمرو بن معاوية أم الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية؟.

سيّد الحيرة في جزء منها على الأقل، ولم يسكن في الحيرة بل في مكان آخر لعله الأنبار، غير أن المنذر قد ظهر بعد قليل واستطاع أن يسيطر على الحارث ويهزمه، ولم يقنع بهذا النصر بل تجاوزه فأمر أن يذبّح أمراء كندة الذين أودعهم السجن. وهذا العمل الوحشي أوحى إلى امرىء القيس فقال في ذلك شعراً جميلاً لم ينس فيه أن يشيد بأمجاده ويذكر نكبة آبائه:

ألا يا عين بكّي لي شنينا
وبَكِّي لي الملوكَ الذاهبينا
ملوكاً من بني حُجر بن عمرو
يُساقُون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركةٍ أصيبوا
ولكن في ديار بني مَرينا
فلم تُغسَلْ جماجمهم بغُسْلٍ
ولكن بالدماءِ مُرَمَّلينا
تظلّ الطيرُ ملحفةً عليهم
وتنتزع الحواجب والعيونا[47]

وبعد قليلٍ تفككت مملكة كندة، وقد ادّى تفكّكها إلى أن ينفصل ابنا الحارث أحدهما عن الآخر، وهما: سلام وشَرحبيل، وكان شرحبيل قد قتل في موضع يقال له

(٤٧) الابيات في الديوان ص ٢٠٠.

«كُـلاب»[٤٨]. غير أن وراء ذلـك استتر العـداء والشحناء بـين قبائل مختلفة، وقد أدّى ذلك إلى الحروب المشهورة في الجاهلية. وقد أراد امرؤ القيس أن يثأر لأجداده، وأن يسترد مملكة كندة، فتوجه إلى «القسطنطينية» ملتمساً المعـونة والنجـدة من جستنيان مستغـلاً كونـه مناوئـاً للحيرة، الأمـر الذي يـأمل بـه أن يحظى بـرعايـة الامبراطـور البزنـطي. ولكن ذلك لم يجـده شيئـاً فقـد انتهت مملكة كندة[٤٨] إلى الأبد.

ومع ذلك لم تكن هذه المملكة القصيـرة العمر قليلة الأهميـة بالنسبة لمستقبل العرب. إن اجتماع هذه القبائل الكثيـرة بقيادة «آكل المُرار»، إذا كان لي أن أوضح الأمـر، لهو المحـاولة الأولى للعرب في قلب شبه الجزيرة العـربية في تـوحيد صفـوفهم وراء زعيم واحـد مشتـرك. ولعـل ذلـك كـانت تمهيـداً أو مقـدمـة لاجتماع القبائل المختلفة بعد قرن من الزمان وراء زعامة النبي محمد ـ ﷺ ـ، ولم تعدم إلّا الجانب الديني الذي كان من شـأنه أن منح الاسلام القوّة العظمى. أن زوال الكنديين بعد سقوط مملكتهم أوجـد في أثناء «الـردّه» بعد مـوت النبي محمـد ـ ﷺ ـ

---

(٤٨) انظر حواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣/٣١٥.

وقد كشفت التنقيبات الأثرية الحـديثة التـابعة لجـامعة الملك سعـود برئـاسة الـدكتور عبـد الرحمن الانصـاري عن قريـة «الفاو» عن مـظاهر حضـارية مختلفة الى الشمال الشرقي من نجران بمـا يقرب من ٢٨٠ كيلومـتر، وهذه عاصمة دولة كندة لحقبـة تربي عـلى خمسة قـرون، كما عثـروا على كتـابات بالخط المسند.

عدة قبائل. غير أن هذا الحدث وهو الردّة التي أخضعت حين لم يمكن ايقاف انحلال كندة، يرينا التقدم الذي أصابه العرب في خلال هذا القرن بشأن إقامة الدولة.

إذن هناك ثلاث ممالك[٤٩] كانت تقتسم شبه الجزيرة العربية فكان الحميريون في الشمال ان القبائل التي أخذت نصيبها في هذا الكيان كانت من أصل جنوبي، وفي إمكاننا أن نؤمن أنهم كانوا حملة أصول حضارة لم يكن البدو في الشمال إلا غرباء عنها. والعرب من سكان الحيرة والغساسنة كانوا قد اشتبكوا في الخصومة التي كانت بين البزنطيين والفرس. وكان العرب قد نظروا من قرب وتعلموا من هذه المصادمات الحربية الفن الحربي على يد أولئك السادة الذين أتقنوا هذه الصناعة في تلك العصور. وبإمكاننا أن ندرك بيسر أن جميع ذلك كان من اختصاص العرب، ولم يكن ذلك إلاّ تمهيداً للصراع الذي خاضه العرب عند ظهور الاسلام، ومن أجل ذلك نكون مخطئين إذا نظرنا إلى خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأقرانهم على أنهم قوم بدو لا علم لهم انقلبوا جنوداً وقادة في فترة قصيرة.

وكان تقدم العرب في حضارتهم المادية واضحاً كما كان تقدمهم في الناحية الأدبية كما سنبين في المحاضرات اللاحقة.

---

(٤٩) لا بد أن نضيف مملكة النبط في المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة في الموضع المعروف باسم العربية الحجرية.

المحاضرة الثانية

في

التقدم العقلي لدى العرب

التقدم العقلي لدى العرب

لقد أفاد العرب من الحضارتين الإغريقية والرومانية كما أفادوا من الحضارة الفارسية. وهم مدينون إلى هذه المصادر الحضارية على نطاق واسع في التقدم الذي أصابوه وقادهم إلى الحدث العظيم الذي جاء به الاسلام. وأسسو الدول قبل ذلك بكثير. في خلال القرنين أو ثلاثة القرون التي سبقت الإسلام كانوا قد أسسوا دولاً، وكان لهم أن مَرَنوا على فن الحرب، وأحرزوا تقدّماً في حياتهم المادية كما تهيّأ لهم أن ينشئوا أدباً يتمثل في القصائد التي عرفت قبل الاسلام، وهي تلك المواد الأدبية الممتعة العظيمة التي تثبت أصالتهم الأدبية من غير منافس.

وقبل الكلام على هذا الشعر ينبغي لنا أن نقول بضع كلمات في السبب الذي في رأينا قد كان له الأثر القوي في أفكار العرب، إنه النصرانية في الحيرة وفي دولة الغساسنة. لقد كانت النصرانية سائدةً جداً في هاتين المملكتين، وكان القسم

الأعـظم والقسم المهم من سكـان الحيـرة، ومن يـطلق عليهم «العِباد» من النصارى. وقد يحصي المرء كنائس وأديرة كثيـرة في هـذه البـلاد، وكـان هؤلاء النصـارى يقيمـون رسـوم عبـادتهم بـاحترام واحتفـال، وهو مـا كان يتميـز به هؤلاء النصـارى في الشرق.

وقد بقي ملوك الحيرة وثنيين زماناً طويـلاً. وقد كـان الشرق في تلك الأحقاب مقسماً بين قوّتين كبيرتـين هما: الامبـراطوريـة الساسانية والامبراطورية البزنطيـة، وان يكون نصـرانياً في تلك الحقبة كان يعدُّ منحازاً أو موالياً للبزنطيين، وكان هـذا حتى في منطقة بعيدة كبلاد الحبشـة، فالملك فيهـا كان معـدوداً مشايعـاً للبزنطيين لمجرد كونه نصرانياً، ومعنى ذلك أنه خصم للفرس. وقد أفلت النعمان أبو قابوس حين اعتنق النصـرانية من غضب الفـرس، وذلك لاعتنـاقـه المـذهب النسـطوري وهـو المـذهب المحظور في بيزنطة، وقد اضطهد البزنطيون أتباع هذا المذهب، فكانوا من أجل ذلك على صلة حسنة بالفرس الساسانيين.

وقـد ادعى مؤلفون من النصـارى إن ملوكاً سبقـوا النعمـان كانوا معتنقين للنصرانية وكان من هؤلاء المنذر الثالث؛ غـير أن هذا الملك كان قد قدّم قـربانـاً إلى الإلاهة «العـزّى» ابن الملك الغساني مع أربع مئة من الراهبات، ومن هذا نتبيّن بوضوح أنه وثني جـدّ عنيد وجـدّ متوحّش منجبّـر، كما تؤيـد ذلك الأخبـار

التاريخية العربية، وإلى هذا الملك ينسب تأسيس «الغريّين»، وهما نصبان كبيران إلى جوار الكوفة، وهما أيضاً مكرّسان الى «العُزّى» ويسكب عليها دماء الأضاحي، وقد تكون هذه الأضاحي ضحايا من البشر.

ومن المعروف أن أسطورة ألصقت بهذه الأحجار، هي تلك التي تشير إلى النهاية المؤلمة «لمضلّل وعمرو بن مسعود»، وهي تتمثل في «يوم النعيم» و«يوم البؤس»، وقد كان من ضحايا «يوم البؤس» الشاعر عَبيد بن الابرص[1] والقصة المؤثرة لحنظلة وشَريك، وهما الشيطان وصاحبته[2] في الاسطورة العربية.

لقد بقي الملوك وثنيين بسبب ما عرضنا له إلى أن جاء النعمان، غير أن النصرانية لم تكن قليلة الانتشار في هذه البلاد، فقد وجدت سبيلها حتى في الأسرة الملكية كما كان الحال في روما قديماً.

إنها (أي النصرانية) وجدت السبيل إلى أسرة الفلابيين (des Flavii) وهي موطن الوثنية الامبراطوري.

---

(١) هو عبيد بن الأبرص الأسدي، شاعر جاهلي، من دهاة الجاهلية وحكمائها عاصر امرأ الفيس. انظر أخباره في الاغاني ١٩/٨٤، وخزانة الادب ١/٣٢٣.

(٢) انطر في هذه الاسطورة ما جاء في أحبار الشاعر في الأغاني، وما كتبه الدكتور طه حسين في «الشعر الجاهلي».

لقـد كانت الملكـة «هند» زوجـة المنـذر الثـالث نصـرانيـة، وكـانت قـد ابتنت الديـراً والكبيسـة اللذين بقي منهـما النقش الذي يشير إلى التأسيس والبناء، وإن لم يكن هـذا «النقش» تامّ النص، فقـد كان في جـوهره بهـذا المعنى، وكان مفهـومـاً عـلى النحو الآتي تقريباً:

«لقد شيّدت هـذه الكنيسة هنـد بنت الحارث بن عمـرو بن المنـذر، الملكة بنت الملوك وأمّ الملك عمـرو بن المنذر، خـادمـة المسيح، وأمّ خادمـه، وبنت خَدَمـه، وذلك في عهـد شاهنشـاه كسرى أنو شروان، وقد كان أفرام أسقف المدينة . . .» .

إن هذا النص الجميل الحقيقي من غير شك يشهد بازدهـار النصرانية مع بقاء الملوك على الوثنيـة. لقد كـانت الحيرة مـركز الاسقفية، وقد كان ذلك في الأقل ابتداءً من سنة ٤١٠ م.

وكـانت مملكة غسـان نصرانيـة أيضـاً، فقـد اعتنق ملوكهـا النصرانية قبـل ملوك الحيرة بـزمن طويـل، وكانت نصـرانيتهم أرثوذوكسية، وهي بالنسبة إليهم عقيدة دينية تتفق مع المصالـح السيـاسية. وكـانت الاحتفالات الـدينيـة تقـام بـأبّهـة كبيـرة، فـالقُسس في مسوحهم الـدينية الفـاخرة، وكتبهم في طقـوسهم ذات خطوط أنيقة.-وان احتفالهم بالأعيـاد لا يمكن إلاّ أن يحفز عرب شبه الجـزيرة فيحملهم عـلى أن يُهرَعـوا إلى هذه المـواطن النصـرانية. وكـأن ذلك كـان يصوّر لاولئـك العرب إن عبـادة

هؤلاء النصارى أسمى وأبهى من عبادتهم في التضحية بأرواح البشر قرابين للعُزّى يقدّمون على مذبحها الملطّخ بالدماء!

وقد أشار النابغة الذبياني الى احتفال الغساسنة بالأحد «يوم السباسب»[٣] فقال:

مَجلّتهم ذاتَ الإلهِ ودينُهمْ
قويمٌ فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ
رِقاقُ النِّعال طيِّبٌ حُجُزاتُهم
يُحَيَّونَ بالرَّيحانِ يومَ السباسبِ[٤]

وكذلك الإشارة الى الكتب الكبيرة الكنائسية، والتماثيل والصور التي سلبت عقول العرب. وقد أشاروا في هذا الى «الدمية» وهي الكلمة ذات الأصل الآرامي وتعني فيها الصورة أو الشبه. لقد أشار امرؤ القيس واستعمل أشياء من هذا النوع، كما استعمل النابغة من هذا في وصفه المشهور «للمتجردة»، وأنه نعتها بتمثال من مرمر في قوله:

أو دميةٍ من مَرْمَرٍ مرفوعةٍ
بُنيت بآجُرٍّ تُشاد وقَرْمَدِ[٥]

(٣) يوم السباسب عيد للنصارى ويسمى السعانين. انظر السعانين في كتاب «الديارات» للشابشتي.

(٤) الديوان ص ٤٩.

(٥) الديوان ص ٩٦.

والشاعر عبيد بن الأبرص:

وأوانسٍ مثلِ الدُّمَى
حُور العيونِ قد استَبَيْنا[٦]

ولنرجع إلى الأدب ما قبل الاسلام ونقول: إنه قبل كل شيء أدب شعري، بل يكاد يكون مقصوراً عليه، وأنّ تقدّمه كان بفضل الحياة المضطربة للقبائل العربية. لقد كان الشعر بادىء ذي بدء في ضربين: الأول لا يكاد يستحق اسم الشعر وهو الهجاء القديم، لكن الثاني كان في نظام القصيد.

إن الضرب الأول ذو طابعٍ شعبي، في حين كان الثاني نوعاً أدبياً مكتمل البناء. وكما بينّ صديقي الاستاذ كولدزيهر، ان كلمة «الشاعر» لدى العرب تعني في الأصل «العارف»، أو المالك لمعرفة لم تتيسر لأبناء القبيلة الآخرين. إن هذه «المعرفة» ترجع إلى أنها من وحي شيطان خاص للشاعر وهو الذي يوحي إليه ويغويه.

إن الشاعر قائد للقبيلة، وهو الذي يتحدث باسمها مدافعاً عنها. وأنه بعد هذا يملك قوّة خارقة غامضة، تلك التي يعجّل بها على أعداء قبيلته بالدمار فيقذف باللعنة عليهم. وإذا كان الشاعر ينطق بوحيٍ من شيطانه فهو شيطان أيضاً، وهو ساحر

(٦) الديوان ص ١٣٨.

رهيب، ومن أجل هذا لم يكن اتفاقاً أن تعني مادة «نشد» التعويذة والتلاوة أيضاً. وإعراب الشاعر وإتيانه باللعنات على أعداء قبيلته كان غرضاً ضرورياً له.

وقد يكون النصر في الحرب لقبيلة ما بسبب ما يرمي به الشاعر أعداءه بلعناته في شعره مساوياً لما يبديه أفراد القبيلة من شجاعة في الحرب وإن هذه «اللعنات» لا تعدم تأثيرها، ذلك أنها لا تنجم عن الساعر نفسه بل عن شيطانه الذي يوحي إليه، والذي لا يستطيع أحد أن يصدّه. إن الأخبار المأثورة التي تؤيد هذا الاعتقاد عندهم كثيرة.

يقدم تاريخ العبرانيين لنا نظائر هذا الاعتقاد، وذلك كما في قصة «بَلْعَم» وهو الشاعر الشيطان. إن ملك هذا الشاعر المدعو «بَلَك» يدعوه ليرمي بلعناته على الاسرائيليين، التي تستحيل بإرادة اللّه بركات. إن «بَلُعَم» شاعر عربي، وقد كان كَولدزيهر على حق حين زعم أن قصة «بلعم» هي أقدم وثيقة في «الهجاء». ولهذا «الهجاء» رسومه الثابتة التي تقضي أن تخلع فردة حذاء الشاعر وتُسقَط عنه جوانب من قميصه بحيث يُغَطّى وجهه، وذلك علامة للغضب والعداوة. ومثل هذا ما يوجد في عصرنا، وهو أن ملك أثيوبيا وعظماءها يغطّون وجوههم بقمصانهم علامة لغضبهم. وفي قذف اللعنات الذي يتم برفع الاصبع إشارة إلى الشخص الذي تصيبه اللعنة، إن

هذه الاصبع تدعى في العربية «السّبابة»، وفي ذلك إشارة إلى اللعنة القديمة.

والإشارات التاريخية تحذّر من المشي في نعل واحدة، ومن ذلك قولهم: «لا يمشي أحدكم في نعل واحدة»، وكذلك أن يسدَل القميص على الوجه، أو أن يسلِّم المرء بإصبع واحدة، كل ذلك مما أنكرته العادات الوثنية، ثم جاء الاسلام بعد ذلك وسعى إلى إبطالها.

لقد فُهم الهجاء في أصل نشأته نثراً مقفًّى أي سجعاً، ومنه نشأ فن الرجز، وهو أسهل بحور الشعر وأقدمها، وهو الذي تميّز به الأدب الشعبي. وأقدم مثال لتلك اللعنات قولهم:

اللهمَّ أَحصِهم عدَداً، واقتُلْهم بَدَداً، ولا تَذَر على الأرض منهم أحداً.

ان «الهجاء» يعني «اللعنة»، ولم يجيء معنى الانتقاص للهجاء إلاّ بعد ذلك بحسب التطور التاريخي. إن الكلمة (أي الهجاء) تعني في اللغات السامية الأخرى «الحَمْجَمة» أي الكلام بصوت خفيض غير مفهوم كما ينطق بالعبارات السحرية الغامضة.

إلى جانب هذا اللون الشعبي الذي لا يتألف إلاّ من أبيات قليلة، تطورت القصيدة العربية التي تمثل اللون الأدبي الكبير للشعر العربي. وأننا لا نعرف هذا اللون من الأدب، في كل

الاحتمالات، إلا في زمن قريب من تطوره واكتماله. ان القصائد البديعة في القرن السادس يفترض فيها أن تكون قد خضعت الى تنقيح أو تعديل لم يبق له من أثر، وهذا التنقيح في رأيي قد شمل اللغة. ويعتقد المرء أن لغة الشعر في عهود ما قبل الاسلام هي لغة موحّدة في جميع الامكنة التي سكنها الجاهليون.

إن امرء القيس ينتسب إلى قبيلة «كندة»، وهيّ في الأصل من العربية الجنوبية من قبائل «قِتبان»، وأن النابغة من قبيلة ذبيان، وهذه القبيلة من غَطَفان، أي أنها من مُضَر، وأن عمرو بن كلثوم من تغلب المتحدّرين من ربيعة، غير أن شعر هؤلاء جميعهم يفهم منه لغة واحدة.

أليس في الإمكان أن نفترض أن قبائل مختلفة لم تكن لهجاتها الخاصة مختلفة فيما بينها؟

إن اللغويين القدامى قد أشاروا الى صيغٍ خاصة ببعض القبائل كالكشكشة والكسكسة والتلتلة ونماذج أخرى خاصة أيضاً، ولم يكن شيء من ذلك قد ورد في الشعر القديم. ومن الدليل على عكس هذه المقولة ما أثر من أشعار ليست قليلة نسبت إلى رعاة أو جماعة من عامة الناس الذين لا يمكن أن نفترض أن لغتهم لغة أدبية، بل أنها انعكاس لما درج عليه الناس في كلامهم.

غير أننا نرى أن لغة الشعر الشعبي في كل مكان تبتعد بشكل مّا عن اللغة المتداولة في درج الكلام. وأكثر من ذلك ينبغي ألا ننسى أن اشعار أولئك الرعاة قد وصلت الينا بوساطة أولئك اللغويين والنحاة الأقدمين الذين، كما نعرف، قد نقّحوا وصححوا من نصوصها، وعلى هذا فإن منهج النقد للنصوص الذي نتبعه غريب عمّا كان لديهم غرابة تامّة. على أن طرائقهم في العمل النقدي شبيهة بما نجده لدى الاغريق الأقدمين.

إن القصائد الهوميرية لا يمكن أن تمثل أيّاً من اللهجات الدارجة في تلك العصور بين الإغريق. إنها لغة شعرية تفهم على هذا النحو في كل مكان، وأنها بسبب ذلك شيء مصطنع. إنها لغة لا نجدها كثيراً، قد صنعها الشعراء أنفسهم. ونعتقد أن طريقة مماثلة قد تحققت لدى العرب، وهذا يوضح لنا الطابع الثابت المقنّن في اللغة الشعرية.

غير أنه لا بد من سؤال هو: أين تكونت هذه اللغة الشعرية؟

كل شيء يحملنا على أن نفتش عن أصل تلك اللغة بين القبائل التي تألفت منها مملكة كندة في أواسط بلاد العرب.

لقد وجد الشعراء في النزاعات الكبيرة التي كانت تنشب بين القبائل موضوعات جديرة بألحانهم. كان الشعراء الأقدمون على صلة وثيقة بهذه الأحداث، فقد ذكر المصنفون العرب أن

المهلهل التغلبي[٧] أول من قصّد القصائد الطوال، وهو أخو كليب أحد أبطال «حرب البسوس». وقد كان امرؤ القيس من كندة يشير إلى أنه قد حُرِم عرش آبائه. ان المباريات الشعرية، كما ورد في الأخبار، كانت تعقد في «عكاظ»، على مسافة ثلاثة أيام من مكة، بين الطائف ونخلة، ولم يكن لها أن تساهم في تطور القصيدة العربية، وذلك لأننا لا نعرف عن هذه القصيدة إلا ما كان منها في عصرٍ متقدم نسبيّاً من تاريخها الطويل، وفي هذه الحقبة كانت قد نضجت واكتملت بما يُفترض أن تكون قد جرى عليها تنقيح على مدى زمن طويل.

ومن السمات البارزة في هذه القصيدة ما يتصدرها من أشعار الحب التي تدعى «النسيب». والشاعر فيها يشكو من رحيل حبيبته، وذلك لأن التنقل المستمر للقبائل العربية كان من شأنه أن ينهي علاقات الحب بين الشاعر وحبيبته. ومن أجل هذا هو حزين أبداً، يبكي الدمار والمواضع التي كانت فيها حبيبته فأضحت خلاءً لا ترد على سؤاله. وهذه الأشعار في الغالب تتصف بجمال فريد لما فيها من عواطف رقيقة، قال النابغة:

(٧) هو عدي بن ربيعة من بني جشم، شاعر جاهلي، من الابطال المشهورين. انظر الشعر والشعراء ص ٩٩ وجمهرة أشعار العرب ص ١١٥، الخزانة ١/٣٠٠ـ٣٠٤.

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما[٨]

وما هام الفؤاد بها
إلا السفاة وإلا ذكرة حُلُما[٩]

وقوله:

يا دارَمِيّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ
أقوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ
وقَفتُ فيها أُصَيلالاً أسائلُها
عيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ[١٠]

وأن القاعدة في استهلال القصائد بشيء من النسيب جرى عليها الشعراء المتأخرون، طوال القرون الثلاثة الهجرية في الأقل، ولكن ما لبثت أن صارت شيئاً غريباً.

ومن هذا ما جاء في قول المتنبي (من شعراء القرن الرابع الهجري):

إذا كان مدحٌ فالنسيبُ مقدَّمُ
أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيّمُ؟[١١]

---

(٨) صدر مطلع قصيدة، وعجزها: «واحتلَّت الشَّرْع فالأجزاعَ من إضَما» ص ٢١٥.

(٩) كذا ورد صدر البيت وتمامه: «إحدى بَليٍّ» وما هام الفؤاد بها» ص ٢١٥.

(١٠) الديوان ص ٧٦.

(١١) مطلع قصيدة في الديوان في طبعاته المختلفة.

ولكن كيف تمَّ بناء القصيدة العربية؟

لقد كان الحب الموضوع السائد والمعتاد في الشعر لدى العرب كما هي الحال عند سائر الشعوب. وكما هي الحال في عصرنا فالمغني المصري يتخذ من الحب موضوعاً لغنائه. لقد صار الحب المادة الرئيسة في قصيدة الشاعر الملتزم الذي لا يجد محيداً عنها.

إننا لواجدون حقيقة كهذه لدى الإغريق، فإن جماعة ما يُسَمَّون بـ «rhapsodes» كانوا ينشدون القصائد الهوميرية ويقدّمون لها بأناشيد من هذا القبيل. وقد بقي شيء من ذلك في نشيد «Hymni homerici». وإذا كان الحب مادة في الشعر لدى العرب فانه لدى الإغريق النشيد المقدس.

وكلا هذا وذاك مقدمة تبدو لنا غريبة وهي تسبق التلاوة للقصيدة كلها. على أن القصيدة لا تخلو من المقدمة الغزلية كما هي الحال في شعر المراثي في بكاء رجل عظيم من رجال القبيلة وذلك لان الموضوع الحزين لا يتفق وطبيعة الشعر في النسيب.

ومهما يكن من شيء فقد أصاب الشعر في القرن السادس الميلادي حظَّه الأوفى من النضج وهذا يؤلف درجة ما أدركه العرب في التقدم العقلي. على أن قدراً مهمّاً آخر من النضج قد

أصابه العرب في الفكر الـديني بتأثيـر اليهود والنصـارى الذين كانوا يسكنون شبه الجزيرة العربية.

ولقد رأيناكم تأثر العرب في الحيرة وكذلك الغساسنة في بلاد الشام بالفكر المسيحي، وأنهم أخذوا به واعتنقوه.

ولا بدّ أن ألمح الى ما اعتقده البعض من أن هؤلاء المعتنقـين للمسيحية كانوا تمهيداً لظهور النبيّ محمـد ـ ﷺ ـ، بل أقـول: إنهم روّاد الفكر الديني لدى العرب عامّة. على أن جمهرة البـدو من أعراب شبه الجزيرة لم يتميّزوا مطلقـاً بفكرة دينيـة راسخة. وقد ذلك في قوله تعالى: **﴿الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً﴾**.

إن الآلهـة والأصنام كـانت معروفـة سائـدة، ولم يكن للدين لدى البدو حافز من عاطفة عميقة الأصول كما هي الحال لـدى الإغـريق والرومـان، كما لم يكن لهم رسـوم عمليـة في سلوكهم الديني، ولم يتأتَّ لهم ذلك إلاّ في عصور متـأخرة وذلـك بتأثـير اليهود والنصارى.

غـير أن جمهرة هـذه الآلهة الكثيـرة سـرعـان مـا أفضت الى مجمــوعـة صغيــرة مهمـة، وهي عبــادة «مَنــاة» و «الــلات» و «العُـزّى»، وقد نُسيت آلهـة أخرى. ولكن «اللَّه» أكبـر منهن جميعاً، قال أوس بن حجر:

وباللّاتِ والعُزّى وباللّهِ ان اللّه منهن أكبر[١٢]

ونرى كم اقتربت الأفكار التي تؤمن بالتـوحيد، وأنها كـانت منتشرة قبل الاسلام، وكم كانت الأفكار مهيّأة لعبـادة الواحـد الأحد.

---

(١٢) البيت في ديوانه «المجموع» ص ٣٦.

المحاضرة الثالثة

في

التقدم المادي

التقدّم المادي

كان التقدم المادي للعرب بارزاً متميزاً كما هي الحال في تقدمهم العقلي. لقد وجدت الحضارة البزنطية بما كان فيها من مظاهر التأنق سبيلها الى شبه الجزيرة العربية، كما كان هذا بالنسبة الى حضارة الفرس. ولنا على ذلك دليل غير مباشر[1]

---

(١) ربما كان الأمر على عكس ذلك في واقع الحال، فالنصوص السبئية القديمة أطلقت على اليمن «يمنات» بمعنى الخير والبركة، أي ما ترجمه الرومان الى «أريبيا فيلكس» أي العربية السعيدة دلالة على غنى تلك البلاد ومدى حضارتها. لقد ذكر المؤرخ بلينوس الروماني في القرن الاول للميلاد وصفاً لبلاد العرب يدل على حضارتهم، وحديثاً آخر يدل على كثرة صادراتهم الى الرومان، قال: «كسبت بلاد العرب نعت «سعيدة» لأنها فياضة بحاصلات يستعذبها أهل الترف ويباهون في اقتنائها جهازاً لموتاهم، ويقصد بذلك «اللّبان» الى أن يقول: هكذا انصرف المترفون الى إحراق هذه الحاصلات أمام أجساد أعزائهم الراحلين الى دار الفناء بعد أن كان استعمالها قبلاً ينحصر في مراسم العبادة لآلهتهم. وتبتز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من أموال امبراطوريتنا مبلغ مليون «ستريسة» وهي قطعة لعملة رومانية =

ولكنه مصدر ثقة، وهو جمهرة الكلم الذي استعـاره العرب من هاتين الحضارتين. ان من البديهي أن العرب أدخلوا المسمَّيـات مع اسمائها، أو قل: إنهم بالأحرى أدخلوا المسمَّيات قبل اتخاذ أسمائها.

إن هـذا من الجوانب المتعة في فقـه اللغـة العـربيـة، وهـو صعب في الوقت نفسه، وذلك لأن لهذه اللغة خصوصية عجيبة في تعـريب الكلم الدخيـل، وعلى سبيـل المثـال أن العـرب في مـدينة «مصـوَّع» قد أخـذوا أو صاغـوا من الكلمـة الايـطاليـة «Soldi» وهي ضرب من العملة الصغيرة جمعاً على بناء «فَعالِل» فقالوا: «صَلادي» «Saladi»، وهذه الصيغـة عربيـة قد يصعب عـلى السامـع أن يعـرف أنها دخيلة. أمـا إذا كـانت الكلمـات دخيلة من أصول لغات سامية أخرى فإنه من الصعب أن يقطع المرء في أنها في تلك الحال مستعـارة من لغة من تلك اللغـات، أو أنها اصيلة في العـربية، وهي عنـدئذٍ من المشتـرك بين هـذه اللغات.

لقـد احتقـر العـرب، ولا سيـما البـدو في جـاهليتهم،

= قديمة، في كل عام، وهذا على أقل حساب، وتلك ثروة طائلة بـذِّرها عـلى أهواء مترفينا ونسائنا».

انظر: د. عدنان ترسيسي، اليمن وحضارة العرب ص ١٥ (بيـروت مكتبة الحياة).

الزراعة[٢]، فقد قال شعراؤهم: ان المجد يُتحصَّل بالسنان وليس بزراعة الحقول. وبسبب من هذه النظرة كانت الكلمات الدالة على الزراعة من أصل آرامي. وهذا ما اعترف به العرب أنفسهم كما في كلمة «أكّار» وتعني الفلّاح، وكذلك «أريس» أو «إريس» أي الزْرّاع[٣]، وكذلك كلمة «نِير» وهو الخشبة التي تُربط بسَيْر الدابة في آلة الحراثة.

ومن هذا «أندَر» بمعنى المكان أو المساحة، وهو من الآرامية «إدّار»، وكذلك «الناطور» وهو حارس الكرم، وفي الآرامية «ناطورا»[٤]، وكذلك «الفدّان» وهو من أسماء المقادير في

---

(٢) لعل اليمن القديمة غير سائر أقاليم شبه الجزيرة العربية، ذلك أن اليمانيين أهل فلاحة منذ أقدم العصور لما كان في ظروف اليمن الجغرافية من عوامل مساعدة كخصب الارض وكثرة المياه من المطر والعيون والآبار.

(٣) هذا صحيح ذلك أن العاملين في الفلاحة في عامة بلاد العرب في المشرق كانوا إما نبطاً أو آراميين ومن أجل هذا حفلت لغة الفلاحة بالمعرَّب من أصل آرامي، وكنت قد جمعت في هذا رسالة صغيرة نشرتها في ضمن كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني على أننا لا نعدم أن نجد في ألفاظ الفلاحة شيئاً آخر من الكلم القديم وهو الكلم البابلي الاكدي، وهذا ظاهر في الالفاظ العراقية مما يتصل بالفلاحة. وليس غريباً أن نجد شيئاً من اللغة الفارسية مما عرّبه العرب.

(٤) أقول: «الناطور» كلمة آرامية استعارها العرب ودخلت في لغتهم وأدبهم، قال المتنبي:

نامت نواطير مصرٍ عن ثعالبها
وقد بشمت وما تفنى العناقيدُ =

المساحة[5].

ومن هذا أسماء طائفة[6] من النبات والفاكهة استعارها العرب من لغات أجنبية، ومن ذلك مثلاً «البنْدُق» وجمعها «بنادق»، وهو مما لا يُدرك بيُسْر وهو من أصل اجنبي (nux pontica) من مملكة «البونت» «Pont»، فهو منسوب الى هذه البلاد، فقد استعاره الآراميون فكان «فُنْتَق» ثم في العربية «بُنْدُق». وسنورد في موضوع آت أمثلة من هذا النوع وسنقتصر على ذكر طائفة مهمة من النبات والشجر.

= وما زالت هذه الكلمة في عامية أهل العراق، فالناطور هو الحارس أياً كان غير مختص بالكرْم.

(٥) الفدّان من أسماء المساحة وهو قدر معين من الأرض يختلف بحسب البلدان. ولعل أصله آلة الحرث أي المحراث، وما زال هذا معروفاً لدى العراقيين للمحراث الذي تجره دابّتان. وكأني ألمح فيه من هنا التثنية فهو مثنى «فدّ» و «الفدّ» هو الواحد أو المرد. وكأن «الفرْد» والراء فيه قد جاءت من فك ادغام الدال في «فدّ» وليس غريباً أن يتحول هذا الى «الفذّ» بالذال المعجمة في المعنى نفسه. ومن هنا كان «الفدّان» مثنى «فدّ» أي الحيوان الفرد الذي يجر آلة الحرث مع «الفدّ» الآخر.

(٦) أود أن أقول: بالرغم من وجود الأثر الآرامي في الأدب الفلاحي العربي القديم، فمن حقي أن أقول: ان مشاركة العرب في هذا التراث بما تسعف به العربية القديمة من فرائد كبيرة جداً، فقد كتب اللغويون المتقدمون، كالاصمعي في هذا فكان له كتاب في النبات وآخر في النخل والكرم، ولأبي حاتم كتاب النخل الذي قمت بتحقيقه ونشره، وللنضر بن شميل كتاب في النبات والكرم، عرض فيه لأسماء البقل والشجر. (بقية الدعاة ٢/٣١٦).

ومن ذلك شجرة الزيتون التي لا وجود لها في شبه جزيرة العرب، وكذلك في بلاد النبط القريبة من فلسطين وشهادة «سترابون» حاسمة في هذا الباب، إذ قال: ان البلاد خصبة مثمرة لجميع أنواع الفاكهة إلا شجر الزيتون. إننا ندرك من ذلك أن هذه الشجرة النافعة لا تحتمل المناخ الشديد الحرارة أو الشديد البرودة.

إن النظر اللغوي يحملنا أيضاً على أن ننظر إلى كلمة «زيتون» على أنها كلمة دخيلة، وذلك لأنه لا يوجد في العربية كلمة أخرى على وزان «زيتون»(٧)، وبسبب من هذا إنها مستعارة من الآرامية.

ومن الكلم الدخيل المستعار الكلمات التي تعني «المصابيح» التي يجهلها العرب الأقدمون، الذين لم يكن لهم من المحتمل من وسائل الإنارة شيئاً إلّا إشعال النار والاستضاءة بقبس.

ومما نعرف أنه إذا لدغ أحدهم من عقرب أو أفعى سامّ تقام حوله ضجّة وتوقد نار في الليل حتى يبقى الملدوغ يقظاً كلما أبصر إشراق النار، وهذا ما كانوا يدعونه «نار السِّلْم»(٨). وكذلك توقد النار إذا ما أُخذ الأسْرى عبيداً في الليل مخافة أن

---

(٧) جاء في كتاب (النبات) للأصمعي ص ٣٧: والعُتْم هو الزيتون البرّي (القاهرة ١٩٧٢).

(٨) انظر فصل «نيران العرب» في كتاب «بلوغ الأرب» للآلوسي.

يخطئوا في عددهم عند الأخذ. إن اللغة تشهد أن استيراد المصابيح خاص بالآراميين.

إن كلمة «قنديل» من أصل لاتيني «كاندلا» «Candela» استعارها الإغريق ثم تحولت، من هؤلاء إلى الآراميين، ثم استعارها العرب بدورهم من الآراميين. ويقابل هذا، الكلمة الفارسية «چراغ» «Tchirag» قد استعارها الآراميون فكان «شِثراغا» «Šrāgā» التي جاءت منها الكلمة العربية «سِراج»، فأمّا «نِبْراس» فمن الآرامية «نِبْراشتا» «nebrasta».

غير أن هذا يقتصر على مصابيح الكنائس التي بهرت العرب، وهذا دليل آخر في تأثير الديانة المسيحية في أفكار العرب.

يقول امرؤ القيس: إن وجه حبيبته يضيء الظلام كمصباح الراهب المتبتّل:

تُضيءُ الظلام بالعشاء كأنّها
مَنارةُ مُمسَى راهبٍ متبتِّلِ [٩]

كما شبّه وجه العروس الشابّة بمصباح زيتي ذي فتيل:

يضيء الفراش وجهها بضجيعها
كمصباح زيت في قناديل ذُبّالِ [١٠]

(٩) الديوان ص ١٧.

(١٠) الديوان ص ٢٩.

وقد شبّه النابغة نصل السيف وهو يلمع بمصباح الراهب:

وأســمــرَ مــارنٍ يـلتــاح فـيــه
سنـانٌ مثـل نبــراس النّهـامي[١١]

وفي الواقع أن هذه المصابيح إذا ما قورنت بالنار الموقدة، أو القَبَس من النـار، تعدّ تقـدّماً حضـارياً كبيـراً. ومن هنـا كـان النابغة الجعدي[١٢] على حق حين وجد هذه المصابيح المدهشـة التي ليس فيها دخان كما في قوله:

لم يجعل اللّه فيه نُحاساً[١٣]

لقد أشرنـا الى أن الحضارة لـدى العرب جـاءت من مصادر أجنبية، ولكن في الوقت نفسه ندرك مقدار قيمة هـذه الحضارة عندهم، وكيف أفادوا منها؟

ولنعرض لمادة مهمة أخرى نتفق بـادىء ذي بدء أنها مجتلبـة الى شبه الجزيرة العربية في تاريخهـا القديم، ولم تكن ممـا أوجده العرب، تلكم هي الخمر.

إن للخمرة أسماءً كثيرة في العربية، وان شيئاً من ذلك ألفاظ

---

(١١) الديوان ص ٢٣٩.

(١٢) هو قيس بن عبد اللّه، أبو ليلى، شاعر مخضرم، صحابي، تـوفي نحو سنـة ٥٠ هـ. انظر الاعلام ٦/٥٨.

(١٣) عجز البيت في «اللسان» (نحس) وصدره: يضيء كضوء سراج السليط.

شعرية، أو أنها نعوت لها فحلّت محلّها، غير أن الاسم العام لها هـو الخمـر أو الخمـرة. إن مـادة «خمـر» تعني «التغـطيـة» أو «السَّتْر»[١٤]، وهذا شيء لا علاقة له بالخمر مطلقاً، في حين ان الأصل للكلمة في الآرامية يعني «التخمير» (Fermenter).

وقد يتساءل المرء: هل يعني هـذا أن العنب غير معـروف في شبـه الجزيـرة العربيـة[١٥]؟ ليس شيء من ذلك البتّـة. غير أن شيئاً آخر هو أن تتبينّ رُبّ الأعناب، ثم ان هناك شيئاً آخر هـو الصناعة العمليـة للنبيذ الـذي يعني تقدّمـاً كبيراً في الصنـاعة. لقد ورد الخمر كثيـراً لدى المؤلفـين العرب، وان الـطريقة التي تحدثوا بها عن الخمر تثبت ما ذهبنا إليه.

إن شرب الخمر أمارة ثراء وغنى، وأن يسقي المـرء أصحابـه خمراً لهو شيء من أمارات السخاء، وقد يتجاوز ذلك الى التبذير والبذخ، قال عنترة يتمدَّح بشربه الخمر:

ولقـد شربتُ من المُـدامـة بعـدَمـا
رَكَدَ الهواجـرُ بالمَشـوفِ المُعْلَمِ[١٦]

---

(١٤) تمحل اللغويـون العرب فـذهبوا الى أن «الخمـر» سميت «خمراً» لأنها تسـتر العقل.

(١٥) الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر «الاعناب» كثيرة ومنها قوله تعالى:
﴿أيودّ أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ ٢٦٦ سورة البقرة.
﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً﴾ ٦٧ سورة النحل.

(١٦) الديوان ص ١٥.

وإن امرء القيس بدا غاضباً لأن مزاياه لم يُعتَرف بها فقال:

ولم أسبأ الزقّ الرويَّ . . . . . [17]

إن الشاعر «الحادرة»[18] الذي يُدعى قطبة بن أوس يتمدّح بسخائه بكلمات يتوجه بها إلى حبيبته فيقول:

فسُمِيَّ ما يُدريكِ أن رُبَّ فتيةٍ
بـاكـرتُ لـذّتهم بـادكنَ مُتْـرَعِ
بكـروا عـلي بسُحْـرةٍ فصَبَحتُهم
من عاتقٍ كدم الذبيحِ مُشَعْشَعِ[19]

وكذلك زهير في كلامه عن حضيلة بن حسن لم يجد أحسن من قوله:

أخي ثقـةٍ لا تُتلفُ الخمرُ مـالَـه
ولكنّـه قـد يُهلكُ المـالَ نـائلُهْ[20]

---

(١٧) بعض صدر بيت وتمامه:
«ولم اسـبـأ الـزقَّ الـرويَّ ولم أقـل
لخليـليَ كُـرّي كـرَّةً بعـد إجفـالِ
الديوان ص ٣٥.

(١٨) الحادرة أو الحويدرة شاعر جاهلي وهو قطبة بن أوس بن مِحصَن، ينسب الى غطفان أو ذبيان انظر مقدمة الديوان ص ص ٧ ـ ١٤.

(١٩) الديوان ص ص ٥٦، ٥٧.

(٢٠) الديوان ص ١٤١.

إن غـلاء الخمـر لـديهم كـان بسبب نفقـات استيـراده. إن مصدر الخمر الذي يُستهلك في شبه الجزيرة هو سوريـة أو بلاد مـا بين النهـرين، فخمرة حمص وقـاصـرين «Khoss»، وبـابـل مشهورة وهي نظير خمرة عانه والأندرين وعَذْريات (كذا)[٢١].

وقد أشار النابغة الى خمرة «بُصرى» التي تنقل على الإبـل في زقاق مختومة. وهل لي أن أقـول بضع كلمـات في تحريم الخمـر كما ورد في كلام اللّه. لقد جاء في آيتين هما قوله تعالى:

﴿يسئلـونك عن الخمر والميسر قـل فيهما إثم كبـير ومنافـع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[٢٢].

وقوله تعالى أيضاً:

﴿يا أيّها الذين آمنوا إنمـا الخمر والميسر والأنصـاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾[٢٣].

وفي الآية الأولى تصريح في أن للخمر منافع للنـاس، ولكن الضـرر أكبـر من النفـع. وهـذا يعني أن في الخمـر مـع ذلـــك

---

(٢١) عانة بليدة على الفرات بين هيت والرقة، ذكـرها يـاقوت. وهي مـا زالت قائمة مأهولة. و «الأندريـن» قرية جنوبي حلب، ذكرها يـاقوت وردت في شعر عمـرو بن كلثـوم. وأمـا «عـذريـات» كـذا فلم أهتـد إليهـا ولعلهـا مصحفة.

(٢٢) ٢١٩ سورة البقرة.

(٢٣) ٩٠ سورة المائدة.

منفعة، فما الضرر الذي يفوق هذه المنافع فيها؟

من المحتمل أن الضرر يتأتّى مما يُنفَق عليها ويبذَّرَ فيه. ومما يدلّ على هذا ما ورد في آخر هذه الآية من أنه مسموح للمؤمنين أن ينفقوا بسعة على أنفسهم وذلك في قوله تعالى: **﴿ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفوَ كذلك يبيّنُ اللّه لكم الآيات لعلكم تتفكّرون﴾**[٢٤]. وليس شرب الخمر محرَّماً في الديانتين اليهودية والنصرانية.

وقد جاء ذكر الخمر في سورة المائدة في الآية التي ذكرناها، وكذلك في الآية التي تليها مع الميسر والأنصاب والازلام، وهو ما يباشرونه من القداح على أنه رجس من صنع الشيطان[٢٥]. وفي هاتين الآيتين كانت الخمرة مساويةً لأشياء أخرى تنسب إلى عبادة الأصنام، وان تحريمها صريح، في حين أنها كانت قبل ذلك شيئاً منهيّاً عنه لم يتصف بالقطع على نحو ما جاء في الآيتين المشار إليهما من سورة المائدة.

وجاء في الحديث مما أورده الطبري في تفسيره: أن عمر بن

---

(٢٤) ٢١٩ سورة البقرة.

(٢٥) قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر اللّه وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾** الآيتان ٩٠، ٩١ سورة المائدة.

الخطاب قد سأل عن الخمر، فكان الجواب الأول الإشارة إلى الآية ٢١٩ من سورة البقرة، ثم كان الجواب الثالث أن أشير عليه بما ورد في الآيتين اللتين أشرنا إليهما من سورة المائدة.

وإذا كنا قد علمنا أن الخمر يؤتى به من خارج شبه الجزيرة، وأنه شيء نادر يتطلّب نفقة كبيرة فليس عسيراً علينا أن نقبل أن كلمة «خمر» مما استعير من اللغة الآرامية.

وهناك كلمة أخرى من هذه المادة مستعارة أيضاً هي «خمير»، وهي المادة التي يختمر بها العجين فيُخبز. ولم يكن العرب القدماء على معرفة بهذا فقد كان عندهم «الجريشة» وهي حب القمح المدقوق والمطبوخ، وليس الخبز بعينه. وهذه الحقيقة معروفة لدى أمم أخرى كالجرمان والرومان في روما، فقد كان محظوراً عليهم أن يمسّوا العجين المختمر، وهذا يرينا أن استعمال الخميرة قد دخل بلاد العرب في زمن متأخر. وينجم عن هذا ايضاً أن العرب ما كانوا على علم بالفُرن وليس له كلمة في العربية، وما يقال من الكلم نحو: تنّور، وأتّون، وفُرن فإنها كلمات غريبة دخيلة، وأنها دخلت العربية حين دخلت المواد التي تتصل بها. إن الكلمة الأخيرة «فرن» تعرف حالاً، ذلك أنها من اللاتينية «فُرْنُس» «Furnus» وقد استعارها العرب عن طريق اللغة الإغريقية. إن كلمة «فُرْن» كلمة قديمة وردت في الشعر القديم.

ولما كان الكلام على الغذاء فكذلك الكلام على الملابس الرقيقة، لقد كانت تُجتلب من البلاد الأجنبية فالقميص من اليونانية «Camisia»، والبُرْجُد هو من «Paragauda» وكذلك البُرْنُس من اليونانية، والسِّرْبال من «Sarbela»، والمِرْط من «merta»، وأشياء أخرى كلها مستعارة دخيلة، ومن ذلك أيضاً مُوق «muq» ومَوُزج «mawzdj» اللذان يشيران الى ضرب أنيق من الأحذية، وهو غير الحذاء الصندل «Sandale» الخاص بالأقوام السامية.

ومثل هذا، الكثير من أسماء الأحجار والحلي كالمرجان والجُمان والزَبَرْجد. غير أن الدُّرّ، وهو من أشهر أنواع الحلي، من أصل عربي، وتعني «الدرّة» في الأصل القطرة، وبسبب من المشابهة أطلقت على الحجر الكريم.

ومن المعلوم أن «الدرّ» وهو اللؤلؤ يؤتى به من «الخليج»، وفي خصوص هذه الكلمات بدت مسألة عكسية، وهي أن كلمة عربية استعارها الساميون الشماليون من غير العرب.

وهناك أشياء كثيرة متنوعة يمكننا أن نشير إليها بإيجاز، وهي جملة قضايا سياسية ودينية ترتبط بالحضارة وبالحركة الأدبية تركت آثارها، وكان العرب مهيَّئين لمواجهة أحداث جسام تنتظرهم.

لقد ترك العرب في بداية الأمر الى سكان البلاد المفتوحة أن

يـديـروا شؤونهم، ولكنهم في خـلال الحكم الأمـوي أمسكـوا بـأيديهم تلك الشؤون شيئـاً فشيئاً، وذلـك في طـريقهم إلى أن يصبح كل شيء «قومياً» وطنياً. لقد بدأوا بالعملة التي جعلوهـا إسلامية خالصة.

وبعـد هذه الفتـرة لم يبق للعرب شيء كثـير يلتمسونـه لـدى غيرهم من الأمم من حيث الأفكار الـدينية وكـذلك مما يتصل بضروب الترف، وما هو من قبيل المنتجات المصنوعة غـير أنهم صاروا يلتمسون العلم الإغـريقي، ففي عهد المنصـور العبّاسي ثم في عهد هارون الـرشيد ولا سيما في عهد المأمون كـثر نقل التراث الإغريقي بوساطة العلماء التراجمـة السريـان مثل حنـين بن إسحاق وقُسطا بن لوقا وآخرين كثيرين غيـرهما. إن التـأثير العقـلي لهؤلاء السريـان في العلماء المسلمين قـد تمَّ بيسر بفضل روح التسامح الذي أفاد منه غير المسلمين عملاً بأنهم أهل ذمّة لهم حقوقهم، وبذلك تيسَّرت العلاقات بينهم وبين المسلمين.

لقد صارت علوم الـرياضـة والفلك والطبّ والفلسفـة مادة الـدرس للعلماء العـرب. وكـان الكنـدي والفـارابي وابن سينـا والـرازي والفـرغـاني والبتّـاني وابن رشـد رجـالاً مشهـورين في الشـرق والغرب عـلى السواء، وكـانت اسمـاؤهم معـروفـة في اللاتينية.

ثم مارس العرب تأثيرهم في أوروبا، فقد أفاد الغربيون منهم

وظهر ذلك في كتبهم وفيما أوجدوه من المنتجات الصناعية. لقد أدخلوا الى إسبانيا والى صقلية جملة أصناف من النباتات المفيدة. وكانوا يرسلون الى الغرب منسوجاتهم ومنتجاتهم الثمينة التي تحمل الأسماء العربية. وقد حدث في بعض الأحيان أن رجعت إلى الغرب كلمات غربية كان العرب قد غيّروها في إستعمالهم حين استعاروها من الغربيين. ومن ذلك جملة من أسماء الأوزان والمقاييس، ومن ذلك الأونسيا اللاتينية (Uncia) التي تحولت إلى الإغريقية، ثم منها استعارها الآراميون فكانت عندهم «أُوقيا» (Uqya) التي صارت في العربية «اوقيّة»، ثم شاعت في الغرب باسم «اوكا» «Oca» التي هي ١/١٢ من الرطل، وكذلك «الأوقيّة» «الأونسيا» التي هي ١/١٢ من «الليبرا» «Libra».

إن كلمة «ليبرا» هي يونانية الأصل، أخذ منها الآراميون كلمة «رَطلا» «Retla» ومنه تحولت الى العربية «رِطْل»، ثم عادت الكلمة الى الغرب بعد شيوع صيغتها العربية فكانت «روتولا» «Rotola» وهي كلمة ما زالت معروفة في صقلية والقسم الجنوبي من إيطاليا.

وهناك كلمة أخرى عرض لها هذا النوع من الحركة والاضطراب، تلكم هي كلمة «قَصْر» بمعنى القلعة أو الحصن. إنها الكلمة اللاتينية في الأصل «كاسْتْرُم» «Castrum» أخذها

الإغـريق، ثم تحـولت إلى الآراميـة «قَسْـطْرا» «Castra»، وفي الآرامية الغربية «قصرا»، ثم صارت في العربيـة «قَصْر». وهذه الصيغة العربية ولّدت الكلمة الايطالية «كاسيـرو» «Cassero»، والاسبانية «الكزار» «Alcazar».

ومثال آخر هـو كلمة «Abricot»، ولمـا كان المشمش ينضـج قبل الخوخ «Les Pêches» الذي يشبهه دعاهما الرومان «برسيكا براكوسيا» «percica Pracocia»، ومن هذه الأخيـرة «براكـوسيا» جاءت الكلمة الاغريقية. وهذه الكلمة تبدأ بحرفـين صامتـين «Consonnes» فكـان لها ان تكـون في اللغات السـامية مبـدوءة بحرف صامت تتبعـه حركـة أي صوت مصـوِّت «Voyelle» ثم يليـه الحرف الصـامت الثاني، ولمـا كان الحـرف «P» يبـدل بـه الحرف «b» صارت الكلمة في الآرامية «بَرْقوقـا» أو «بَرْقـوقيا»، «بضم الباء أو فتحها». ومن هذه الكلمة العربية الأخيـرة أخذ الايطاليون «Albicocca» وكـذلك الكلمـة الفرنسيـة «Abricot» والكلمة الاسبانية «Albarcoque».

إن الكلمـات التي هي من أصل عـربي كثيـرة في الـلاتينيـة الجـديـدة «Neo—Latin»، وذلـك بقـطع النـظر عـمّا في اللغـة الاسبـانيـة من الكلم العـربي الكثـير الـذي كـان لـه أسبـابـه المعروفة.

إن الكلمـة «Leluth» هي في الايـطاليــة «Liuto» وهي آلـة

موسيقية وترية من أصل شرقي وهو «العود» في العربية.

ومن ذلك كلمة «alcova» و «alcôve» من الكلمة العربية «القبّة» التي هي من بين معانيها الكثيرة في العربية تفيد معنى كلمة «alcôve». وكذلك كلمة «baldaqui» و «baldacchino» التي اشتقّت من كلمة «بغداد» المدينة المشهورة، لقد كان هذا الاسم في القرون الوسطى «Boldac» و «Boldacco». إن كلمة «baldaqui» تعني القادم من بغداد. ان صنع «الأريكة» مع مخملها المنقوش البغدادي كان يحظى بشهرة عظيمة، ومن هنا دلت هذه الكلمة على هذه «الاريكة» ذات المخمل المنقوش. ان قماش «الموسلين» من أصل عربي، واسمه يشير إلى أصله من مدينة «الموصل» التي اشتهرت بصناعة الانسجة الرقيقة.

إن الكلمة الفرنسية القديمة «truchement» التي هي من «drogma» لم تكن إلا الكلمة العربية «ترجُمان»(٢٦).

وقد كثرت الكلمات العربية في الكلمات العلمية في القرون

---

(٢٦) أقول: من المفيد أن نذكر أن هذه الكلمة من المشترك السامي القديم، ذلك أن «الترجمة» هي من «تركوم» الكلمة المعروفة في تاريخ اللغة العبرانية، وهو ما كان يكتب من أسفار العهد القديم بالآرامية وتحته النص نفسه بالعبرانية، وهذا يشير إلى أن العبرانيين اليهود صاروا يقرؤون النص الآرامي حين كانت لغتهم مهجورة منسية في حقبة ظهور السيد المسيح ـ عليه السلام ـ.

الـــوســطى، وليس من أحـــد ينكـــر أن كلمـــة «Algèbre» أو «algebra» عربية الأصل.

وفي كلامنا الموجز هذا أعطينا لمحة عن شبه الجزيرة العربيـة قبل الاسلام متعمدين ألا يشمل الكلام العربيـة الجنوبيـة التي سنفرد لها الكلام في «المحاضرة الرابعة».

المحاضرة الرابعة

في

«العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة»

العرب الجنوبيون وبلاد الحبشة

يؤلف العرب الجنوبيون في شبه الجزيرة العربية بحضارتهم القديمة نقيضاً للعرب الشماليين، تلك الحضارة التي من المحتمل أن تكون أصولها في أرض البابليين. لقد كوّن هؤلاء العرب الجنوبيون دويلات مزدهرة قبل زمن طويل من أي من الممالك التي قامت في الشمال. لقد كان أوائل من قطن في تلك الجهات مجموعات أسطورية[1]، كما يشير المؤلفون العرب، نخص منهم قوم عاد الذين دُمِّروا بما عصوا ربهم وكفروا. وكان بطلهم عاد الذي سمَّوا به أول ملك للعرب.

غير أنه من حسن الحظ أننا عثرنا على كتابات كثيرة وقفنا منها على تاريخ القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية. إن

(١) قوم عاد ليسو من المجموعات الاسطورية، فقد تحدث عنهم القرآن، ولكن دون تحديد موطنهم، على أنهم كانوا معروفين لدى العرب، وقد ارسل اللّه إليهم أخاهم هوداً فكذّبوه وعصوه، فاهلكهم اللّه بريح صرصر عاتية أتت عليهم وتركتهم كأعجاز نخل خاوية.

بإمكاننا أن نتبينّ أربع مراحل كبيرة في تاريخ هذه البلاد :

أولاها وأقدمها «مرحلة ملوك معين» أو المعينيون . وقد رأى بعض العلماء أن هذه الدويلة يعود تاريخ قيامها إلى أكثر من عشرة قرون قبل الميلاد، في حين كان آخرون أكثر حذراً وحيطةً في هذا إذ رأوا أنها قامت في حوالي سنة ٨٠٠ قبل الميلاد .

وثانية تلك المراحل المرحلة التي تخصّ «مُكَرِّب» وملوك سبأ التي تلتها «مرحلة ملوك سبأ وذو ريدان» .

إن هؤلاء كانوا قد حكموا منذ بداية القرن الأول للميلاد والى سنة ٣٠٠ م تقريباً . وأما «المرحلة الرابعة» فهي «مرحلة ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويَمَنات»، وهذه «المرحلة» عرفت كثيراً باسم الحميريين أو الأموريين، وقد انتهى عصر هؤلاء وحكمهم بانتصار الاحباش عليهم سنة ٥٥٢ م .

إن ممالك أخرى نحو «القتبانيين» في حضرموت قد أشارت إليها الكتابات القديمة . إننا لا نعرف لغة هؤلاء العرب الجنوبيين إلا من خلال الكتابات التي اكتشفت بقدر كبير، وعرفت مادتها منذ أكثر من نصف قرن . إن بعضاً من هذه النصوص المكتوبة تعود ربما الى القرن التاسع ، وهي تلك التي تخص المعينيين، وهي أقدم المراحل في تاريخ هذه البلاد . إنّ حل رموز هذه النصوص قد أثار صعوبات كبيرة، غير أن

تحليل النصوص وتفسيرها قد أدّى إلى نتائج أكيدة في كثير منها.

إن تلك النصوص في الغالب موجزة، وهي تشتمل في جملتها تقريباً على كلمات تتكرر هي بعينها، ولكنها كافية في إفادتنا بالمادة اللغوية عن هذه اللغة، وعن الخصائص التي تتميز بها عن العربية الشمالية. إن أغلب هذه النصوص ما يقدَّم من نذور، وانها تظهر في مادتها نمط الحياة الهادئة المطمئنة التي يحياها الناس. إنهم يقدّمون الضحايا ويتقرّبون بقرابين الى الآلهة: «إمسَكه» و «أثتار» و «شمس» شاكرين لها ما أسدت إليهم من خِصب وبركة في الزرع، وثراء في الغلّة الزراعية في البلاد.

إن أغلب هذه النصوص يكشف في أقل الاحتمالات وجود أدب إن لم يكن لها أي أثر آخر. إن المناطق الواسعة في شبه الجزيرة العربية الجنوبية مزدهرة الى حد بعيد، حتى إنها أطلق عليها في الزمن القديم «العربية السعيدة»: إن هذه الثروة ترجع الى سببين رئيسيين هما:

١ ـ خصب الأرض الذي كان من بركته من بين أشياء كثيرة العطور المشهورة «aromata» التي كان الطلب عليها شديداً في الزمن القديم.

٢ ـ التجارة التي يمتد طريقها من الهند إلى البحر الأبيض

المتوسط، وذلك في اتباع الطريق البرّي. وكانت القوافل تصل الى «مأرِب» وهي «مَرْيَبة» لدى الاقدمين وهي عاصمة السبئيين، مارّة بمكة، ومنها تواصل إلى غزّة ومنها إلى البحر. غير أن التقدم في الملاحة أدّى بعد قليل من الزمن الى تبدل الطريق الذي تتبعه القوافل. وقد اتّجهوا شيئاً فشيئاً إلى تفضيل الملاحة في البحر الأحمر. إن هذا ممّا ألحق الضيم برخاء البلاد وثروتها. وأكثر من ذلك ما حدث من انكسار السد المشهور المعروف بـ «سيل العرِم» وكان من ذلك أن أعداداً كبيرة من السكان قد هاجرت إلى الشمال. وكان من ذلك أن جملة قبائل سكنت الشمال وهي من أصول جنوبية مثل تنوخ وغسّان وطيّء.

إن ملوك المرحلة الرابعة وهم الحميريون أو الأموريون قد سيطروا كما أشرنا على كل البلاد إلى غاية البحر. وكانوا أيضاً غرضاً لهجمات الأعداء ولا سيما الأحباش، ذلك أن مملكة الحميريين، في الوقت نفسه، أو قبل ذلك بقليل، دولة جديدة قد قامت على الساحل الآخر من البحر الأحمر، تلكم هي مملكة أكسوم. إن قيام هذه الدولة راجع من غير شك إلى العرب الجنوبيين الذين بانتشارهم البطيء كما يقول «رينان»، قد هاجروا الى الحبشة التي كان أهلها من جند آخر مختلف عنهم. ولن أتكلم على أولئك السكان الذين يمكن أن ندعوهم «محليين» أو «وطنيّي الحبشة» وهم الأجداد البعيدون «كنما» أو

«باريا» ولم يسكن هؤلاء كما يبدو إلاّ في المنطقة الكائنة في شمال الهضبة الحبشية.

إن هذه الهضبة على العكس كانت محتلّة من قِبَل «الأكاوو» «Agaau» وهم فرع من أسرة كوشية التي يكون قسم منها «البيجا» «Les Bedja» في الشمال و «الساهو» «Saho» و «الدناكيل» «Danakil» في الشرق، والصوماليين و «الكالا» «Les Galla» في الجنوب.

إن «الأكاوو» بالرغم ممّا قاسوا من اضطهاد ولا سيما في القرن السابع عشر، هم كثيرون عدداً، ولو أنهم انحازوا في داخل الجبال. إن العرب الجنوبيين الذين هاجروا الى الحبشة جلبوا معهم أصولاً حضارية لم يكن في طوق الكوشيين أن يأتوا بها. لقد أقاموا دولة دامت قروناً طويلة التي اختلط تاريخها بتاريخ شبه الجزيرة العربية، أو بتاريخ بيزنطة، أو بتاريخ اليمن وحتى في زمن متأخر اختلط بتاريخ أوروبا.

إن في المساحة الافريقية الممتدّة بعيداً من البحر الأبيض المتوسط ومصر لا توجد بلاد غير الحبشة ذات تاريخ، وليس في غير هذه الرقعة من القارة الإفريقية إلاّ آلاف من الأجيال قد تتابعت إلاّ أنها لم تترك أثراً، ودون أن يكون قد ولد فيها نمط حضاري كيفما كان.

إننا لا نعرف على وجه الضبط متى بدأت هجرة الساميين

إلى الحبشة. ولكنها بالتأكيد لم تكن أسبق من القرن الخامس قبل الميلاد. ولعلها كانت متزامنة مع هجرة هؤلاء إلى شمال شبه الجزيرة. إن الأخبار الرسمية للأحباش جعلت بداية مملكتهم قبل عشرة قرون من التاريخ الميلادي تقريباً، وان أول ملك ربما كان منليك بن سليمان، وهو ابن ملكة سبأ الذي حمل معه إلى الحبشة تابوت العهد بين بني إسرائيل. وهذه أسطورة، وقد نفهمها بيسر، وأنها لا تستند على أساس تاريخي. وأقدم وثيقة صحيحة نملكها هي الكتابة الاغريقية لأدوليس «Adulis» «Zola» و «الطواف» في البحر الأحمر، وهذه لا تخولنا أن نذهب إلى أبعد من القرن الأول الميلادي.

تخبرنا الكتابة الإغريقية المشار إليها: أن ملكاً نجهل اسمه كان قد أسس مملكة أكسوم، وكان قد أعطى هذه المملكة رقعة محدّدة. أما «الطواف» فإنه يشير إلى خلف له، إما بعده مباشرةً، وإما غير لاحقٍ له مباشرة، ولا نعرف هذا الأمر، ويدعى «زوسكالِس» «Zoskalês»، وقد وسّع هذا المملكة.

إن بدايات هذه المملكة كانت غامضة غير واضحة، وبقيت كذلك إلى أن تمَّ اعتناقهم النصرانية، وكان ذلك على يد القدّيس «فرومانس» «St. Frumence» وذلك حوالي منتصف القرن الرابع، وإذا أردنا الكلام على وجه الضبط والتدقيق نقول: إن ذلك قد تم بدخول النصرانية. ذلك أنه لا يمكن أن

نفتـرض ان جمهـور النـاس في البـلاد قـد اعتنقـوا النصـرانيـة مباشرةً، لأننا نرى أن الوثنيين في البلاد. جمهور كبير من الناس بعد القرن الرابع بزمن طويل وطوال القـرن الخامس. غـير أن الدين الجديد كان قد أحدث تقدماً مستمراً، وفي خلال القـرن الخامس كان الملك نفسـه قد اعتنق النصـرانية. ولهـذه الحقيقة انعكاسات في الكتـابات العـظيمة التي وصلت الينـا والتي تقدَّر الآن كل التقدير قربَ أكسوم.

لقـد ذكر الملك في إحـدى هـذه الكتـاب، وأنـه فيهـا شيّـد مذبحاً أو عَرشاً إلى الآلهة التي دعاهـا «مَحرَم» و «بِحِـر» و «مِدْر» (Mahrem, Beher, Medr)، وهـذه تقابـل «Ares» «Mars» إلـه الحرب في «Poseidon»، وإله البحر، وإله الأرض.

إن هـذا النص يـرينـا أن ملك أكسـوم كـان وثنيـاً في ذلـك العهد، وأنه يؤكّد أيضاً، عند الحاجـة، أن أسطورة تحدُّره من «مَنليـك» و «سليمان» ليس لهـا أساس تـاريخي. غير أنـه بعـد ذلك بزمن قليل رأينا أن هذا الملك نفسه شيّـد مذبحـاً، ولكن ليس في «مَحْرَم»، ولا في «بِحِر»، ولا في «مِـدْر»، بل أهـداه إلى إلـه السماء الـذي منحه الملكيـة والذي نجّـاه. إنـه يعبـد هـذا الإله، وأنه تخـلّى عن كل عمـل غير صـالح بخصـوص رعيته، وذلك دليل على عبادنه وتقواه.

ولم يكن ذلـك اعتـرافـاً صـريحـاً بحسب الإيمـان المسيحي

وبموجب تعاليمه الدينية كما كان أن نتوقع من هذا الشيء نظيراً له في النصف الثاني من القرن الرابع المسيحي، أو ما كان بعد المجمع المسيحي في «نيسه» «Concil de Nicée». ولن نجد، كما يبدو لي، من الجرأة ما نفترض أن «إزّنا» «Ezana»، وهو اسم الملك، لم يشأ أن يؤذي مشاعر الكثيرين من أفراد شعبه حين بقي إلى هذه الفترة وثنياً، ولعله وجد قدوته في كون قسطنطين الكبير في أول هذا القرن نفسه الذي منح الكنيسة الأمان دون أن يعلن حربه على الدين السائد في الامبراطورية الرومانية. ولكن اعترافاً في اعتقاد كهذا يكفي تماماً أن يكون شاهداً على التحوّل الكبير المفاجيء في بلاط مملكة أكسوم. لقد اعتقد الملوك وآمنوا بالنصرانية على أنها دينهم «الرسمي». ولهذه الحقيقة أهميتها العظمى في مستقبل بلاد الحبشة.

وفي هذه الفترة كان مصير الشرق بيد قوتين عظيمتين: الأولى نصرانية وهي للأباطرة الإغريق، والأخرى مزدكية وهي ديانة الساسانيين. وكانت كل دولة مسيحية بسبب من هذا صديقة لبيزنطة على أساس أن هذه هي حامية للديانة النصرانية.

ولم يمض وقت طويل على الأحباش في إظهار النصرانية ديناً لهم، حتى بدأوا من غير شك في الوقت نفسه ينظرون إلى مصالحهم السياسية.

إن مملكة الحميريين مع أمرائها الثمانية المتحالفين كانوا قد اتحدوا حوالي سنة ٥٠٠ م تحت سطوة الملك ذي نواس. وكانت اليهودية والنصرانية ما زالتا منتشرتين في اليمن. فأما اليهودية فكانت بفضل الاسرائيليين الكثيرين في شبه الجزيرة العربية، وأما النصرانية فبفضل المرسَلين الدعاة من السريان الأحديين «monophysites» الذين انهزموا من ظلم الأباطرة الإغريق.

وكان الملك ذو نواس يدين باليهودية، وقد اضطهد نصارى نجران اضطهاداً شديداً كما ورد في الأخبار. لقد قتل طائفة منهم بالسيف، كما رمى آخرين في هُوّة تتقّد نيرانها. وبحسب الرأي السائد أنهم أُلقوا في الأخدود كما تشير الآيتان (٤، ٥) من سورة البروج:

قال تعالى: . . . قُتِلَ أصحابُ الأخدود، النارِ ذاتِ الوَقود.

وهاتان الآيتان جاءتا في معرض تشجيع المسلمين المضطهدين في مكة من أصحاب الرسول - ﷺ - من قبيل ضرب المثل للعقاب الذي لحق بالمضطهدين من المسلمين الأوّلين.

إن نصارى اليمن الذين لم يكن لهم أن يأملوا شيئاً من البزنطيين، الذين كانوا بعيدين عنهم، قد اتّجهوا الى الأحباش

النصارى. لقد أقدم الملك «كالِب» عـلى إرسال بعثـة واستطاع بذلك أن يكون سيد البـلاد. لقد أتى الأحبـاش بطريقـة ما الى البلد القديم الذي لم يقطعوا عنه الصلات السيـاسية، فـوجدوا أن هؤلاء قد تغيّروا تغيّـراً عميقاً بسبب اختـلاطهم بالأجنـاس الكوشية.

لقد غزا الأحباش الحميريين، وأحكموا سيطرتهم على اليمن التي كانت محكومة بوسـاطة، نـائب للملك، وكان أول حـاكم فيهـا «أريات»، ثم أبـدل به بعـد قليـل من الـزمـان «أبـرهـة» المشهـور. لقد شيّـد «أبرهـة» هذا في صنعـاء كنيسـة دُعيت بـ «القُلّيْس»، وكانت كما أكدت الأخبار آيةً في الجمال فاقت سائر الكنائس في ذلك العصر.

غير أن سيطرة الأحبـاش على اليمن كـانت قصيرة الأجـل، وكان من أشهر ما قامـوا به في خـلال هذه الفتـرة، هو حـربهم المشهورة وغزوهم لمكّة. وكان الغرض من بناء أبـرهة للكنيسـة المشهورة، كما تقـول الأخبار، هـو أن يجذب الحجّـاج من جميع بلاد العرب إليها ويصرفهم عن مكّة والكعبة.

ويقال في الأثر: أن أحداً من قبيلة فُقَيم من المتعلقين بعبـادة أهل الشمال والحـج الى الكعبة قـد آلمه مـا عزم عليـه «أبرهـة» فغضب فقصـد «القُلّيس» في صنعاء ودنّسهـا، فكان من جـرّاء ذلـك أن استشـاط «أبـرهـة» غضبـاً، فـأراد أن ينتقم ممـا لحق

بكنيسته من إهانة وتدنيس بشن الحرب على مكة، غير أنه لما كان في جيش «أبرهة» «الفيلة» المشهورة لم يكتب له النجاح وخسر المعركة خُسراناً تامّاً[٢]. وكان النتيجة أن خاب ما أمّله أبرهة فتحقّق العكس، ذلك أن ألهب الشعور الوطني فأسهم في إيقاظ العرب الحجازيين. ومع ذلك لم يُفلح أهل اليمن في التخلص من الأحباش إلا بمساعدة إحدى القوتين العظيمتين في الشرق في تلك الفترة.

وكان سيف بن ذي يزن أحد القوّاد العرب قد توجّه أول الأمر إلى القسطنطينية، غير أن طلبه للنجدة قد رُفض. ولهذا صارت بيزنطة الحليف الطبيعي للحبشة بفضل العامل الديني.

---

(٢) ورد فى أعلب كتب التفسر: أن «أبرهه الأشرم» ملك اليمن بنى كنيسة بصنعاء، وأراد أن بصرف إليها الحجيج، فجاء رجل من كنانة وتغوّط فيها ليلا ولطخ حدرانها بالنجاسة احتقاراً لها، فغضب «أبرهة» وحلف أن يهدم الكعبه، وجاء مكه بجيش كبير على الفيله، يتقدمهم فيل عظيم هو أعظم الفيله، فلما وصل الى قرب من مكة فرّ أهلها الى الجبال، خوفاً من جنده وجبروته، وأرسل الله تعالى على جيش ابرهة طيورا سوداً، ومع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه...

وروي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي - عليه الصلاة والسلام -، وفيها كان قوله تعالى. ﴿ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجّيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾

انظر التفسير الكبير ٩٦/٣١ والقرطبي ١٨٧/٢٠، والبحر المحيط ٥١٢/٨

ثم توجه سيف بن ذي يزن شطر بلاد الفرس، وكان ملك الحيرة قد قدّمه إلى بلاط كسرى أنو شِروان، وقد حصل من هذا على المساعدة في حربه مع الأحباش.

غير أن اليمن لم تعمل شيئاً سوى أنها تبدّلت من يحكمها من الأجانب، لقد صار اليمن إقليماً فارسياً واقترب من نهايته.

وقد كانت اللغة في جنوبي بلاد العرب في مرحلة ضعفها وانحلالها. وإذا كانت هذه اللغة ما زالت معروفة متداولة عند ظهور النبي محمد - ﷺ - في جهات عدّة، فقد صارت لغة ميّتة من حيث كونها لغة عامة، وقد استُبدل بها العربية الشمالية. وقد تركت هذه اللغة اثراً وحيداً هو اللهجات الحديثة الدارجة كلهجات الأمهاريين ولهجات جزيرة سوقطرة التي أُخذت تقريباً من اللغة القديمة، ولكن هذه اللهجات لا قيمة لها من الناحية الأدبية.

وكما كان الحال في مملكة الحيرة ومملكة الغساسنة قبيل الاسلام، وكذلك كانت البلاد العربية الجنوبية قد توقفت فليس لها حياة خاصة بها مستقلة. وليس في طرق هذه الحياة ان تقاوم الحركة الاسلامية فتقف عقبةً في طريقها.

لقد فقدت اليمن كل قيمة مفيدة في التاريخ العام، إنها لم تكن إلا إقليماً بسيطاً ذا نظام خِلافي (نسبة الى الخلافة) كما أن فيه سلاطين كان لهم سلطان ونفوذ في مصر. وهؤلاء كانوا

يؤلفـون في زمن مـا دولـة مستقلة تقـريبـاً وذلـك في عهـد «الـرسوليـين» الذين حكمـوا من القرن الثـالث عشر إلى القرن الخـامس عشر، وقـد ازدهـرت العلوم والآداب في عهـدهم. وبحسبنـا أن نقـول: أن «الفيـروز آبـادي» المشهـور صـاحب «القـاموس المحيط» كـان قد عـاش في بلاط أحـد امـراء هـذه الحقبة. غير أن هـذه الدويـلات الصغيرة هي كيـانات ثـانويـة بحق، أو أنها دول غـير معروفـة في تاريـخ العـرب. إن البـلاد العربية الجنـوبية التي كـانت فيما مضى قـوية جـداً، وذات ثروة عـظيمة لم يعـد لها إلاّ مكـان متواضـع في التاريـخ العام للعـالم الاسلامي.

لقـد حصـل شيء من هـذا لـلأحبـاش. تقـول الأسـطورة القديمة: إن الملك «كـالِب» بعد أن تغلب عـلى الملك الحميري ذي نـواس أصبح راهبـاً قضى بقيـة حيـاتـه معتـزلاً بعيـداً عن العمـل. وقد يكـون المـرء ممتحنـاً في أن يـرى في هـذا تـاريـخ الحبشة. إن الفتوحات الكبرى التي قـام بها العـرب قد فصلت الحبشة فصلاً تاماً عن بقيـة العالم، ولا سيـما عن الامبراطـورية البزنطية. لقـد امحّى في هذه الأحقاب وما بعدها كل أسـاس يـأذن للحبشة أن تـدخل في خضم الأحـداث التي تضطرب في الشـرق. وقـد انتهت المـرحلة الأولى من العصر الأدبي الحبشي الذي سُمّي في بعض الأحيان «الأثيوبي» أو «الجعزي» وذلك في عهد هذه الملكية.

إن الشخـوص البـارزة الأولى في هــذا الأدب هي الكتـاب والنقوش، وذلك أن في مملكة أكسوم كـانت أقدم النصـوص في اللغـة الاغـريقيـة (النقـوش) لأدوليس التي مــرّ ذكـرهــا قبـل صفحات، وقد أشارت الى أن ملك أكسوم يشير إلى انتصاراتـه على الشعوب المجاورة له.

إن مثل هذه الأحوال غير نادر كما نعرف، فالنبطيون الـذين يتحـدثون بعـربية عـامية دارجـة يستعملون في كتابـاتهم اللغـة الآراميـة، وذلـك لأن لغتهم ليست لغـة أدبيـة. ولكن وجــود الأنبـاط في وطن خـاص بهم قـد ذهب وانتهى قبـل أن تكـون لهجتهم الدارجة قد تحولت الى لغة مكتوبة.

ولم تتأخر اللغة الوطنية للأحباش في تحولها الى لغة مكتـوبة، فقـد بدأ بـالتدريـج ظهور كتـابات بـاللغة الـوطنية الى جـانب النصوص الإغريقية في أول الأمر، ثم ظهـرت كتابـات باللغـة الوطنية وحدها. ولم تبدأ النصوص الأدبيـة بهذا المعنى الا حـين تـرجمت نصوص الكتـاب المقدس ولا سيـما الأناجيـل من أصل إغـريقي، غير أن من الغـريب أن نلاحظ في عصـرنـا أن هـذا النص الديني المشار إليـه لم يكن مما يتّبَـع في الكنيسة المصـرية، إذا علمنا أن الكنيسة المصرية هي أم الكنيسة الحبشية. غير أن هـذا النص يدعى بـالأحرى النص «السـورياني» أو «السـرياني الغربي».

على أن هناك إشارة من شأنها أن تشرح حقيقة مهمة هي أن دخول النصرانية راجع في الحقيقة الى القدّيس «فرومنس»، غير أن انتشار هذه الديانة وتقدمها يعود الى السوريين. على أن اللغة نفسها تؤيد تماماً هذه النتيجة، وذلك لأن الكلمات التي ترجع الى الديانة النصرانية ذات صبغة آرامية واضحة، ومن ذلك أن الإيمان أو الاعتقاد يُدعى في هذه اللغة «هايمانوت» وهو من الكلمة السريانية «هايمانوتا» وان «البنتاتوك» «Le Pentateuque» يُدعى «أوريت» وهو من الكلمة السريانية «أورياتا».

وقد ترجمت عن اللغة اليونانية الى اللغة الجعزية كتب أخرى إلى جانب الكتاب المقدس، وهذه الكتب تشتمل على الأسفار المشكوك فيها «apocryphes» مثل كتاب «هينوش» «Hénoch» كما تشتمل على كتب الزهد، أو كتب الدعاء المسيحية أو كتب العلم المسيحي «Christologie». وفي أقل ما يمكن أن يتأمله الدارس في محتوى هذه الكتب وفي أنواعها يقتنع بأن هذه الحركة الأدبية انطلقت من أوساط الكنائس والأديرة، وليست من عامة الشعب على عكس ما تحقق لدى العرب. إن ذلك لا يمكن أن يكون قليلاً في كشفه عن الحقيقة الكلاسيكية لهذه اللغة الجعزية.

لقد توقّفت الحياة وكل ما يتصل بالحالة السياسية أو الأدبية

طوال خمس مئة سنة أو ست مئة ابتداءً من القرن السابع .

قال جيبون: لقد دخلت الحبشة في سبات عميق دام عدة قرون انقطعت فيها عن بقية العالم كما أنها نُسيت من بقية العالم أيضاً. لقد أنتهزت جماعات كوشية بدائية تقريباً وهم البيجا والساهو والدناكيل فرصة تدهور هذه المملكة وانحلالها فراحت تحتل مناطق في الشمال والشرق.

على أن الحبشة كانت قد شهدت انبعاثاً لم تعرفه بلاد العرب الجنوبية. لقد قامت فيها دولة صغيرة في إقليم «لاستا» قرابة سنة ١٢٠٠ م، ولكنها سرعان ما انتقلت زعامتها إلى أسرة ملكية ادّعت تحدُّرها من «منليك» و «سليمان» وذلك في سنة ١٢٧٠ م، وقد سيطرت هذه الأسرة شيئاً فشيئاً على جميع بلاد الحبشة، وأسست مملكة ما زالت في عصرنا هذا[٣] .

لقد اندثرت اللغة الجعزية، ولكن اللهجات الحديثة المتداولة في شِمال بلاد الحبشة وهي: التيكريّة «Tigrai»، والتيكرينيّة «Tigrinnā»، والتِكريّة «Tigré» أخذت محلها شيئاً فشيئاً في قسم من البلاد في الأقل. وقد تولّدت هذه اللهجات من اللغة الجعزيّة، في حين جاءت اللغة الأمهاريّة من اللغة الحبشية القديمة، وهي اخت اللغة الجعزيّة التي كانت من

(٣) يريد الاستاذ غويدي مؤلف هذه المحاضرات بقوله: السنة التي ألّف فيها محاضراته وهي سنة ١٩١٩ م.

المحتمل متداولةً في جنوب بلاد الحبشة، والتي يمكن أن تلحق باللغة الدارجة في حضرموت. إن هذه اللغة القديمة لم يبق لها أثر، وذلك لأنها في الحقبة التي كانت فيها متداولةً كانت بلاد الحبشة الجنوبية غارقة في ظلام من الوثنيّة والجهل.

ويقابل هذا أن ما أخذ من تلك اللغة القديمة وهو من الأمهارية قد صار اللغة الرسمية الأكثر انتشاراً في كل البلاد الحبشية. إن هذه الأمهارية قد صارت اللغة المكتوبة، ولعل ذلك قد تمّ لمعاداة الدعاية الكاثوليكية للجزويت «اليسوعيّين» في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويشبه هذا تقريباً ما أوجدته الدعاية الكاثوليكية البولونية، من ردّ فعل في الأدب الروسي الارثودوكسي ومع ذلك ظلّت اللغة الجعزية اللغة الأدبية الحقيقية، كما أن مرحلة جديدة للأدب الحبشي بدأت بيقظة المملكة التي ادّعت نسبتها إلى النبي سليمان.

لقد غلبت الترجمة على النصوص الأدبية في هذه المرحلة كما كان الحال في العصور القديمة، غير أن الترجمة في هذه المرحلة الأخيرة لم تكن من الأصول الإغريقية بل كانت ترجمة للنصوص العربية. وقد يكون من الغرابة أن تعمد الكنيسة الحبشية التي تتبع الكنيسة القبطية الى ترجمة الكتب الإغريقية والعربية بدلاً من الكتب القبطية، وعند إزدهار الأدب القبطي لبطريركيّة الاسكندرية كانت الحبشة غارقة في جهل مطبق،

وكانت النصرانية في حالة يرثى لها. ولما تهيّأ لها أن تستيقظ من سباتها كانت العربية قد حلّت محل القبطية حتى في بطريركية الاسكندرية.

ومنذ القرن الثالث عشر كان للحبشة تاريخ متّبع، مستفيدة من ثروة أدبية قديمة وذلك بزعامة جماعة من الملوك، بعد أن عانت من الأذى مع ملوك آخرين.

لقد تعرضت الحبشة مرتين لغزو موجع مشئوم، كان أحدهما ما قام به «محمد كران» الصومالي في القرن السادس عشر الذي أوشك أن يدمر المملكة، والآخر ما قام به جماعات «الكالا» «Les Galla»، لقد قامت جماهير هذه الجماعات الكوشية باحتلال قسم بارز من جنوب الحبشة وحصلت على قوة ورجاحة لا سبيل إلى إنكاره.

إن الأحداث الكبيرة التي عرضت للحبشة في عصرنا الحاضر معروفة جداً بحيث يكون من الضروري أن نذكرها هنا.

خاتمة

لقد رسمنا الخطوط الكبرى لما لشبه جزيرة العرب قبل الاسلام من دور في التهيئة للتاريخ اللاحق. إن قيام الممالك الشمالية في الحيرة وبلاد الشام «الغساسنة» ومملكة كندة[1] قد ساهم بقوة في بناء اللغة الشمالية وتقدمها كما ساهم في إيقاظ الأفكار.

إن الحضارة القديمة في جنوب بلاد العرب قد أثرت تأثيرها وفعلت فعلها، فلقد رأينا جماعات من العرب الجنوبيين قد عبروا الى الحبشة وأقاموا مملكة مستقلة استمرت زمناً طويلاً، في حين كانت بلاد العرب قد فقدت أهميتها عند تحوّل مركز الخلافة عنها إلى البلاد المفتوحة في سورية وبلاد ما بين النهرين. وقد أثّرت في عصرنا تيّارات أخرى وأفكار جديدة في تاريخ الشعوب الإسلامية[2]. غير أن دراسة الأصول ذات قيمة مثمرة في جميع الأحوال، ومن هنا كانت دراسة شبه الجزيرة في العصور التي سبقت الاسلام جديرة بلفت انتباه جميع أولئك الذين يعنيهم التاريخ المفصل للعرب.

---

(١) مر بنا ما أشرنا إليه من الاكتشافات في قرية «الفاو» وهي الكتابات التي كانت بالخط المسند، وقرية «الفاو» . . . كانت حاضرة مملكة كندة

(٢) من المعلوم أن تاريخ هذه المحاضرات كان في سنة ١٩١٩، وهذه وجهة نظر الاستاذ عوبدي مستوحاة من أحوال العرب في تلك الحقبة. ومن غير شك أن العرب صار لهم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وفي حقبة ما بين الحربين العالميتين، مكان عظيم يُحسَب له حساب خاص.

فهرس

هذا الكتاب

لقد رسمنا الخطوط الكبرى لما لشبه جزيرة العرب قبل الاسلام من دور في التهيئة للتاريخ اللاحق. إن قيام الممالك الشمالية في الحيرة وبلاد الشام «الغساسنة» ومملكة كندة قد ساهم بقوة في بناء اللغة الشمالية وتقدمها كما ساهم في إيقاظ الأفكار.

إن الحضارة القديمة في جنوب بلاد العرب قد أثرت تأثيرها وفعلت فعلها، فلقد رأينا جماعات من العرب الجنوبيين قد عبروا الى الحبشة وأقاموا مملكة مستقلة استمرت زمناً طويلاً، في حين كانت بلاد العرب قد فقدت أهميتها عند تحوّل مركز الخلافة عنها إلى البلاد المفتوحة في سورية وبلاد ما بين النهرين. وقد أثّرت في عصرنا تيّارات أخرى وأفكار جديدة في تاريخ الشعوب الإسلامية[٢]. غير أن دراسة الأصول ذات قيمة مثمرة في جميع الأحوال، ومن هنا كانت دراسة شبه الجزيرة في العصور التي سبقت الاسلام جديرة بلفت انتباه جميع أولئك الذين يعنيهم التاريخ المفصل للعرب.

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
لبنان . بيروت ص . ب ١٤/٥٦٣٦